النبيين فخلفت أمّته سائر الأمم، أو جعلهم يخلف بعضهم بعضًا، أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في الشرف والرزق ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والحرّ بالعبد، والغني بالفقير ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن كفر نعمته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن قام بشكرها، ووصف العقاب بالسرعة؛ لأن ما هو آت قريب.

عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأ الأنعام صلى الله عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يومًا وليلة»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأعراف مكية

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾.

﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو كتاب و﴿أنزل إليك﴾ صفة له والمراد بالكتاب: السورة ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: شك منه كقوله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾[2] وسمى الشك: حرجًا[3]؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه، أي: لا تشك في أنه منزل من الله ولا تحرج من تبليغه[4]؛ لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له، فأمّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿لتنذر﴾؟ **قُلْتُ:** بأنزل أي: أنزل إليك لإنذارك به، أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه متكل على عصمته.

فإن قُلْتَ: فما محل ﴿ذكرى﴾؟ **قُلْتُ:** يحتمل الحركات الثلاث: النصب بإضمار فعلها، كأنه قيل: لتنذر به وتذكر تذكيرًا؛ لأنّ الذكرى اسم بمعنى: التذكير، والرفع عطفًا على كتاب أو بأنه خبر مبتدأ محذوف، والجر للعطف على محل أن تنذر أي: للإنذار وللذكر.

فإن قُلْتَ[5]: النهي في قوله: ﴿فلا يكن﴾ متوجه إلى الحرج فما وجهه؟ **قُلْتُ:** هو: من قولهم لا أرينك هُهنا.

ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾ من القرآن والسنة ﴿ولا تتبعوا من دونه﴾ من دون الله ﴿أولياء﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم وأمركم باتباعه، وعن الحسن: يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنّة محمد ﷺ، والله ما نزلت آية إلا وهو يحب أن تعلم فيم نزلت وما معناها. وقرأ مالك بن دينار: ولا تبتغوا من الابتغاء ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا﴾[6] ويجوز أن يكون الضمير في من دونه لما أنزل علي ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، وقرئ*: تذكرون بحذف التاء ويتذكرون: بالياء، وقليلاً نصب بتذكرون أي: تذكرون تذكرًا قليلاً، وما مزيدة لتوكيد القلة.

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾.

﴿فجاءها﴾ فجاء أهلها ﴿بياتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى: بائتين، يقال: بات بياتًا حسنًا وبيتة حسنة، وقوله[7] ﴿هم قائلون﴾ حال معطوفة على بياتًا، كأنه قيل:

---

(1) الثعلبي في تفسيره؛ وأخرج أوله الطبراني في المعجم الصغير ص 104 (الحديث رقم: 212).

(2) سورة يونس، الآية: 94.

(3) قال أحمد: ويشهد له قوله تعالى، فلا تكوننّ من الممترين، ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح، بأن العقد ربط الفكر بمعتقد، والاعتقاد افتعال منه، والعلم يشعر بانحلال العقود، وهو الانشراح، والتبلج، والثقة، وما أحسن تنبيهه بقوله، والاعتقاد افتعال منع يريد إذا كان العقد مبايناً للعلم، فما ظنك بالاعتقاد؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى، ومنه الاعتماد، والاحتمال، ومن ثم ورد في الخير كسب، وفي نقيضه اكتسب؛ لأن النفوس في الشهوات والمخالفات، واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات، وقمع الأغراض، وعلى تلك جاء لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وإن كان العلم من الأعلم المأخوذ من العلمة بالتحريك، وهي انشراح الشفة وانشقاقها، فالذي نكره الإمام حينئذ نهاية في نوعه، والله الموفق.

(4) قال أحمد: ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾ أن يقولوا لولا أنزل إليه كنز، أو جاء معه ملك الآية.

(5) قال أحمد: يريد أن الحرج منهي في الآية ظاهراً، والمراد النهي عنه، والله أعلم.

(6) سورة آل عمران، الآية: 85.

(7) قال أحمد: الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالاً ضعيف، والأفصح دخول الواو كما اختاره الزمخشري، وأمّا الزجاج، وغيره، فيجعلون أحد الأمرين كافياً في الاسمية إما الواو، وإما الضمير، وأمّا قول الزمخشري: إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها، واو الحال كراهية لاجتماعها، وهي واو عطف أيضاً مع مثلها، ففيه نظر وذلك أنّ واو الحال لا بدّ أن تمتاز عن واو العطف بمزية ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جاءني زيد، وهو راكب، ولو كانت عاطفة مجردة، لاستقبح توسطها بين المتغايرين، وإن لم يكن قبيحاً، فالأفصح خلافه، فلما=

فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين.

فإن قُلْتَ: هل يقدر حذف المضاف الذي هو: الأهل قبل قرية، أو قبل الضمير في أهلكناها؟ **قُلْتُ:** إنما يقدر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها، وإنما قدرناه قبل الضمير في فجاءها لقوله: ﴿**أو هم قائلون**﴾.

فإن قُلْتَ: لا يقال جاءني زيد هو فارس بغير واو، فما بال قوله ﴿**هم قائلون**﴾؟ **قُلْتُ:** قدر بعض النحويين الواو محذوفة، ورده الزجاج وقال: لو قلت جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، أو جاءني زيد هو فارس لم يحتج فيه إلى واو؛ لأن الذكر قد عاد إلى الأول، والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حذفت الواو استثقالاً لاجتماع حرفي عطف؛ لأنّ واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس كلام فصيح وارد على حده، وأمّا جاءني زيد هو فارس فخبيث.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿**أهلكناها فجاءها بأسنا**﴾ والإهلاك: إنما هو بعد مجيء البأس؟ **قُلْتُ:** معناه: أردنا إهلاكها كقوله: ﴿**إذا قمتم إلى الصلاة**﴾[1] وإنما خصّ هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيلولة؛ لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القيلولة.

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾.

﴿**فما كان دعواهم**﴾ ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده وقولهم ﴿**إنا كنا ظالمين**﴾ فيما كنا عليه، ويجوز فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا؛ لأنه لا مستغاث من الله بغيره من قولهم دعواهم بالكعب، ويجوز فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أنّ الدعاء لا ينفعهم وإن لات حين دعاء، فلا يزيدون على ذم أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم، ودعواهم نصب خبر لكان، وإن قالوا: رفع اسم له، ويجوز العكس.

فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾.

﴿**فلنسألن الذين أرسل إليهم**﴾ أرسل مسند إلى الجار والمجرور وهو إليهم، ومعناه: فلسنألن المرسل إليهم وهم الأمم يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، كما قال: ﴿**ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين**﴾[2] ويسأل المرسلين عما أجيبوا به، كما قال: ﴿**يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم**﴾[3] ﴿**فلنقصنّ عليهم**﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿**بعلم**﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿**وما كنا غائبين**﴾ عنهم وعما وجد منهم.

فإن قُلْتَ: فإذا كان عالمًا بذلك وكان يقصه عليهم فما معنى سؤالهم؟ **قُلْتُ:** معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم.

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾.

﴿**والوزن يومئذ الحق**﴾ يعني: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، ورفعه على الابتداء وخبره يومئذ والحق صفته أي: والوزن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم الوزن الحق أي: العدل وقرئ*: القسط، واختلف في كيفية الوزن، فقيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان، تنظر إليه الخلائق تأكيدًا للحجة وإظهارًا للنصفة وقطعًا للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها ألسنتهم وتشهد بها عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد، وكما تثبت في صحائفهم فيقرؤنها في موقف الحساب، وقيل: هي عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل ﴿**فمن ثقلت موازينه**﴾ جمع ميزان أو موزون أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم، وعن الحسن: وحقّ لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل، وحقّ لميزان توضع فيه السيآت أن يخف ﴿**بآياتنا يظلمون**﴾ يكذبون بها ظلمًا كقوله ﴿**فظلموا**

= رأيتها تتوسط بينهما، والكلام حينئذ هو الأفصح، أو المتعين علمت أنها ممتازة بمعنى، وخاصية عن واو العطف، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة، فلا غرو في اجتماعها معها، وإن كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصية، فأمّا أن تسلبه حينئذ لا غناء العاطف عنها، أو تستمر عليه، كما تجتمع الواو، ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستدراك في مثل قوله، ولكن لا يشعرون فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف، بلا كراهية، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت سبح الله وأنت راكع، أو وأنت ساجد، لكان فصيحاً، لا خبث فيه، ولا كراهة فالتحقيق، والله أعلم، في الجملة المعطوفة على الحال، أنّ المصحح لوقوعها حالاً من غير واو، هو العاطف إذ يقتضي مشاركة الجملة الثانية، لما عطفت عليه في الحال، فيستغنى عن واو الحال، كما أنك تعطف=

= على المقسم به، فتدخله في حكم القسم من غير، واو موقعة في مثل ﴿والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى﴾ وفي مثل، فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، ولو قلت في غير التلاوة، وبالليل إذا عسعس، لجاز ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم، لنيابة العاطف منا به، فهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المعطوفة على الحال، عن الواو المصححة للحالية، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف لم تخرج عن حدّ الفصاحة إلى الاستثقال، بل أفدت تأكيداً، وإن لم تأت بها فكذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار، والله الموفق للصواب.

(1) سورة المائدة، الآية: 6.

(2) سورة القصص، الآية: 65.

(3) سورة المائدة، الآية: 109.

بها﴾[1].

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾.

﴿مكّناكم في الأرض﴾ جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها، أو ما يتوصل به إلى ذلك، والوجه تصريح الياء، وعن ابن عامر أنه همز على التشبيه بصحائف.

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾.

﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم﴾ يعني: خلقنا أباكم آدم طينًا غير مصوّر، ثم صوّرناه بعد ذلك ألا ترى إلى قوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الآية ﴿من الساجدين﴾ ممن سجد لآدم ﴿ألا تسجد﴾ لا في أن لا تسجد صلة بدليل قوله ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾[2] ومثلها ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾[3] بمعنى: ليعلم.

فإن قُلْتَ: ما فائدة زيادتها؟ قُلْتُ: توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك ﴿إذ أمرتك﴾؛ لأنّ أمري لك بالسجود أوجبه عليك إيجابًا وأحتمه عليك حتمًا لا بد لك منه.

فإن قُلْتَ: لم سأله عن المانع من السجود وقد علم ما منعه؟ قُلْتُ: للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقدًا أنه غير واجب عليه لما رأى أنّ سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب.

فإن قُلْتَ: كيف يكون قوله ﴿أنا خير منه﴾ جوابًا لما منعك، وإنما الجواب أن يقول منعني كذا؟ قُلْتُ: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وبعلة فضله عليه وهو: أنّ أصله من نار وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأمور بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعد أن يأمر بما أمر به.

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾.

﴿فاهبط منها﴾ من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقرّ العاصين المتكبرين من الثقلين ﴿فما يكون لك﴾ فما يصحّ لك ﴿أن تتكبر فيها﴾ وتعصي ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاغرًا إذا أهنته وفي ضده: قم راشدًا، وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار، وعن عمر رضي الله عنه: من تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: انتعش نعشك الله، ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض[4].

فإن قُلْتَ[5]: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم؟ قُلْتُ: لما في ذلك من ابتلاء العباد وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده.

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾.

﴿فبما أغويتني﴾[6] فبسبب إغوائك إياي ﴿لأقعدن لهم﴾ وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفسًا

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 103.

(2) سورة صّ، الآية: 75.

(3) سورة الحديد، الآية: 29.

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل: في التواضع، (الحديث رقم: 8139) وابن أبي شيبة 13/270 كتاب: الزهد، باب: كلام عمر رضي الله عنه.

(5) قال أحمد: تحت كلام الزمخشري هذا نزغتان من الاعتزال خفيتان. أحدهما تحريفه الإغواء إلى التكليف؛ لأنه يعتقد أنّ الله تعالى لم يغوه، أي: لم يخلق له الغي بناء على قاعدة التحسين، والتقبيح، والصلاح، والأصلح، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود؛ لأنه كان سبباً في غيه، وكثيراً ما يؤول أفعال الله تعالى، إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب، ويجعل ذلك من مجاز السببية، لأنّ الفعل له ملابسات بالفاعل، والمفعول، والزمان، والمكان، والسبب، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وإسناده إلى بقيتها مجاز، ويجعل الفعل مسنداً إلى الله تعالى؛ لأنه مسببه لا أنه فاعله، وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار، رجل رآه مقيداً محبوساً في مال عليه هذه وضعت القيود في = رجليك، وأشار إلى سلة فيها أخبصة، وألوان مختلفة رآها عند المسجون، أي: اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سبباً في تبذير المال، الذي آل بك إلى وضع القيود في رجلك، فعلى هذا يروم حمل هذه الآية يعني: بما كلفتني من التكليف الذي كان سبباً في خلقي الغي لنفسي، لأقعدن، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة، وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى، فمجاز هذه إحدى النزغتين. والأخرى: جعله التكليف من جملة الأفعال؛ لأنه يزعم: أنّ كلام الله تعالى محدث من جملة أفعاله، لا صفة من صفاته، والتكليف من الكلام، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما، وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما؛ لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى، إذ هو خالق كل شيء، فما الظنّ بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك، ما لم يسبق به إبليس نعوذ بالله من التعرض لسخط الله.

(6) قال أحمد: وهذا السؤال إنما يورده، ويلتزم الجواب عنه القدرية، الذين يوجبون على الله تعالى، رعاية المصالح في أفعاله، وأمّا أهل السنة، فقد أصغوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فلا يورد أحد منهم هذا السؤال، ولا يجيب عنه من يورده، والله الموفق.

ومناصب، وعن الأصم: أمرتني بالسجود فحملني الأنف على معصيتك، والمعنى: فبسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم.

فإن قُلْتَ: بمَ تعلقت الباء فإن تعلقها بلأقعدنّ يصدّ عنه لام القسم، لا تقول والله بزيد لأمرن؟ **قُلْتُ:** تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره فبما أغويتني أقسم بالله لأقعدن أي فبسبب إغوائك أقسم، ويجوز أن تكون الباء للقسم أي: فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنما أقسم بالإغواء؛ لأنه كان تكليفًا، والتكليف من أحسن أفعال الله لكونه تعريضًا لسعادة الأبد فكان جديرًا بأن يقسم به. ومن تكاذيب المجبرة[1] ما حكوه عن طاوس: أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمي بالقدر، فجلس إليه، فقال له طاوس: تقوم أو تقام، فقام الرجل، فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه قال: رب بما أغويتني، وهذا يقول: أنا أغوي نفسي، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين، وقيل: ما للاستفهام كأنه قيل: بأي شيء أغويتني؟ ثم ابتدأ لأقعدن وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على ما الاستفهامية قليل شاذ، وأصل الغي الفساد ومنه: غوى الفصيل إذا بشم والبشم فساد في المعدة **﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾** لأعترضنّ لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة، وانتصابه على الظرف كقوله:

كما عسل الطريق الثعلب

وشبهه الزجاج بقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن أي: على الظهر والبطن، وعن رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة قعد له بطريق الإسلام، فقال له: تدع دين آبائك! فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: تدع ديارك وتتغرب! فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك! فعصاه فقاتل»[2].

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾.

﴿ثم لآتينهم﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه كقوله: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾[3].

فإن قُلْتَ: كيف قيل **﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾** بحرف الابتداء **﴿وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾** بحرف المجاوزة؟ **قُلْتُ:** المفعول فيه عدّى إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه وعن شماله وعلى شماله قلنا: معنى على يمينه أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلى عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافيًا عن صاحب اليمين منحرفًا عنه غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره كما ذكرنا في تعال ونحوه من المفعول به، قولهم: رميت عن القوس وعلى القوس ومن القوس؛ لأنّ السهم يبعد عنها ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ويبتدئ الرمي منها، وكذلك قالوا: جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه؛ لأنهما ظرفان للفعل ﴿ومن بين يديه ومن خلفه﴾[4] لأن الفعل يقع في بعض الجهتين كما تقول: جئته من الليل تريد بعض الليل، وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أمّا من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا﴾[5] وأمّا من خلفي: فيخوّفني الضيعة على مخلفي فأقرأ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾[6] وأمّا من قبل يميني: فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ ﴿والعاقبة للمتقين﴾[7] وأمّا من قبل شمالي: فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾[8] **﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾** قال تظنينًا بدليل قوله: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه﴾[9] وقيل: سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى لهم.

قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾.

﴿مذؤمًا﴾ من ذأمه إذا ذمّه. وقرأ الزهري مذومًا بالتخفيف مثل مسول في مسؤل. واللام في **﴿لمن تبعك﴾**

---

(1) قال أحمد: وإنما أوردت مثل هذا من كلامه، وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيده عن العقائد الصحيحة، لتبلج الحجة في وجوب الرد عليه، وتعينه على من هداه الله إليه، ولقد صدق طاوس رضي الله عنه، وأما قول الزمخشري في أهل السنة، الذين سماهم: مجبرة، أنهم يتهالكون في نسبة القبائح إلى الله تعالى، فحاصله أنهم يخلصون التوحيد، حتى لا يؤمنون بخالق غير الله، ولكي يصدّقوا قوله تعالى متمدحاً لله خالق كل شيء، لا كالقدرية الذين هم يتهالكون، حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيؤولون الفاعل بالمسبب، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، والله الموفق للصواب.

(2) أخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، (الحديث رقم: 3134)، وأحمد في المسند 3/ 483، وابن حبان في كتاب: السير، باب: فضل الجهاد (الحديث رقم: 4593).

(3) سورة الإسراء، الآية: 64.

(4) سورة الجن، الآية: 27.

(5) سورة طه، الآية: 82.

(6) سورة هود، الآية: 6.

(7) سورة القصص، الآية: 83.

(8) سورة سبأ، الآية: 54.

(9) سورة سبأ، الآية: 20.

موطئة للقسم و﴿لأملأن﴾ جوابه وهو سادّ مسدّ جواب الشرط ﴿منكم﴾ منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب كما في قوله: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾[1] روى عصمة عن عاصم: لمن تبعك بكسر اللام بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد وهو قوله: ﴿لأملأنّ جهنم منكم أجمعين﴾ على أن لأملأن في محل الابتداء ولمن تبعك خبره.

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾.

﴿ويا آدم﴾ وقلنا يا آدم. وقرئ: هذي الشجرة والأصل الياء والهاء بدل منها.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾.

ويقال وسوس: إذا تكلم كلامًا خفيًا يكرّره، ومنه: وسوس الحلي وهو: فعل غير متعدّ كولولت المرأة ووعوع الذئب ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس إليه وهو: الذي تلقى إليه الوسوسة، ومعنى: وسوس له فعل الوسوسة لأجله، ووسوس إليه ألقاها إليه ﴿ليبدي﴾ جعل ذلك غرضًا له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره وأن لا يطلع عليه مكشوفًا، وفيه[2] دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور وأنه لم يزل مستهجنًا في الطباع مستقبحًا في العقول

فإن قُلْتَ: ما للواو المضمومة في ﴿وري﴾ لم تقلب همزة كما قلبت في أو يصل؟ **قُلْتُ:** لأن الثانية مدّة كألف وارى وقد جاء في قراءة عبد الله: أوري بالقلب ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين، وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا، وقرئ: ملكين بكسر اللام كقوله: ﴿وملك لا يبلى﴾[3]

﴿من الخالدين﴾ من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين. وقرئ: من سوأتهما بالتوحيد، وسوّاتهما: بالواو المشدّدة.

وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾.

﴿وقاسمهما﴾ وأقسم لهما ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾.

فإن قُلْتَ[4]: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول: قاسمت فلانًا حالفته، وتقاسما تحالفا، ومنه قوله تعالى: ﴿تقاسموا بالله لنبيتنه﴾[5] **قُلْتُ:** كأنه قال لهما: أقسم لكما أني لمن الناصحين، وقالا له: أتقسم بالله أنك لمن الناصحين، فجعل ذلك مقاسمة بينهم[6]، أو أقسم لهما بالنصيحة، وأقسم له بقبولها، أو أخرج قسم إبليس عن زنة المفاعلة؛ لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم.

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿فدلاهما﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بغرور﴾ بما غرهما به من القسم بالله، وعن قتادة: وإنما يخدع المؤمن بالله، وعن ابن عمر رضي الله عنه: إنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك طلبًا للعتق، فقيل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له[7] ﴿فلما ذاقا الشجرة﴾ وجدا طعمها آخذين في الأكل منها، وقيل: الشجرة هي السنبلة، وقيل: شجرة الكرم ﴿بدت لهما سوآتهما﴾ أي: تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.

(2) قال أحمد: وفي هذه الكلمات أيضاً جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أمرين، أحدهما: قوله إنّ كشف العورة لم يزل مستقبحاً في العقول، فإنه ينشأ عن اعتقاده أنّ التقبيح والتحسين بالعقل، وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة، إلا أنه لا يريد ظاهره، إذ التحسين، والتقبيح إنما يدركان بالشرع، والسمع، لا بالعقل ومعنى هذا الاطلاق، ولو صدر من سنّي، أن العقل يدرك المعنى، الذي لأجله حسن الشرع الستر، وقبح الكشف، الأمر الثاني: استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء، وقد مضى أن ذلك معتقد المعتزلة، وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه، والجواب ممن يعتقد تفضيل الأنبياء، أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته، بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم الله تعالى، ألا ترى إبليس لعنه الله قد أخبر أنّ الله تعالى منعهما من الشجرة، حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين، وهو في ذلك كاذب مبطل، فلا دليل فيه إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك، ولا =

= تصديقه فيه بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما، وغرّهما إذ قال الله تعالى عنه، فدلاهما بغرور، فلعل تفضيله الملائكة على النبوّة من جملة غروره، والله أعلم.

(3) سورة طه، الآية: 120.

(4) قال أحمد: ويكون في الكلام حينئذ لف، لأن آدم وحوّاء عليهما السلام لا يقسمان له بلفظ المتكلم، ولكن بالخطاب، فجعل القسم من الجانبين كلاماً واحداً، مضافاً لإبليس.

(5) سورة النمل، الآية: 49.

(6) قال أحمد: وهذا التأويل يتم لوجود المقاسمة عن ذكر المقسم عليه، وأمّا حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير، فيبعد التأويل المذكور، إلا أن يحمل الأمر على أنه سمي قبول النصيحة: نصيحة للمشاكلة والمقابلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى﴾ أنه سمي: التزام موسى، للوفاء والحضور للميعاد ميعاداً، فأسند التعبير بالمفاعلة، والله أعلم.

(7) رواه ابن سعد في الطبقات، وأبو نعيم في الحلية.

ولا أحدهما من الآخر، وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه ولا رأى مني[1]، وعن سعيد بن جبير: كان لباسهما من جنس الأظفار، وعن وهب: كان لباسهما نورًا يحول بينهما وبين النظر. ويقال: طفق يفعل كذا بمعنى، جعل يفعل كذا، وقرأ أبو السمال: وطفقا بالفتح ﴿يخصفان﴾ ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها كما يخصف النعل بأن تجعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور، وقرأ الحسن: يخصفان بكسر الخاء وتشديد الصاد وأصله يختصفان. وقرأ الزهري: يخصفان من أخصف وهو منقول من خصف أي: يخصفان أنفسهما، وقرئ: يخصفان من خصف بالتشديد ﴿من ورق الجنة﴾ قيل: كان ورق التين ﴿ألم أنهكما﴾ عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس، وروي أنه قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أنّ أحدًا من خلقك يحلف بك كاذبًا، قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كدًا، فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وطحن وعجن وخبز. وسميا[2] ذنبهما وإن كان صغيرًا مغفورًا ظلمًا لأنفسهما وقالا ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات واستصغارهم العظيم من الحسنات ﴿اهبطوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس و ﴿بعضكم لبعض عدوّ﴾ في موضع الحال أي: متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه ﴿مستقر﴾ استقرار أو موضع استقرار ﴿ومتاع إلى حين﴾ وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربي فإنما أصابني الذي أصابني فيك، فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وترا وحنطته، وكفنته في وتر من الثياب، وحفروا له، ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه سنتكم بعده.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦.

جعل ما في الأرض منزلاً من السماء؛ لأنه قضى، ثم وكتب، ومنه ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[3] والريش لباس الزينة أستعير من ريش الطير؛ لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يواري سوآتكم، ولباسًا يزينكم؛ لأنّ الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿لتركبوها وزينة﴾[4] ﴿ولكم فيها جمال﴾[5] وقرأ عثمان رضي الله عنه: ورياشًا جمع ريش كشعب وشعاب ﴿ولباس التقوى﴾ ولباس الورع والخشية من الله تعالى، وارتفاعه على الابتداء وخبره إمّا الجملة: التي هي ﴿ذلك خير﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير؛ لأنّ أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر، وأمّا المفرد: الذي هو خير وذلك صفة للمبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير، ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس المواري للسوأة؛ لأنّ مواراة السوأة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة، وقيل: لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف أي: وهو لباس التقوى، ثم قيل: ذلك خير، وفي قراءة عبد الله وأبيّ: ولباس التقوى خير، وقيل: المراد بلباس التقوى: ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحروب، وقرئ: ولباس التقوى بالنصب عطفًا على لباسًا وريشًا ﴿ذلك من آيات الله﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده يعني: إنزال اللباس ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليها، إظهارًا للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارًا بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧.

﴿لا يفتننكم الشيطان﴾ لا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة. كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ حال أي: أخرجهما نازعًا لباسهما بأن كان سببًا في أن نزع عنهما ﴿إنه يراكم هو﴾ تعليل للنهي وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدوّ المداجي يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون، وعن مالك بن دينار: إنّ عدوًا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله ﴿وقبيله﴾ وجنوده من الشياطين[6]، وفيه دليل بين أن الجنّ لا يرون ولا

---

(1) أخرجه ابن ماجه، في كتاب: الطهارة وسننها، باب: النهي أن يرى عورة أخيه (الحديث رقم: 662).

(2) قال أحمد: وهذا أيضاً اعتزال خفي؛ لانهم يزعمون أنّ اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر، وإن لم يتب العبد منها، فهذا معنى قول الزمخشري، وإن كان صغيراً مغفوراً، وإنما وسمت هذا الاعتزال بالخفاء؛ لأنّ هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة، لكنهم يعنون بكونه مغفوراً أنّ الله تعالى تفضل بغفرانه، ولو شاء لآخذ به، وإن كان الانبياء معصومين من الكبائر، لا كما يزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته، والله الموفق.

(3) سورة الزمر، الآية: 6.

(4) سورة النحل، الآية: 8.

(5) سورة النحل، الآية: 6.

(6) قال أحمد: أين يذهب به عما ورد في الحديث الصحيح من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم النبيّ ﷺ يروم أن يشغله عن صلاته، حتى أمكنه الله منه، فأخذه عليه الصلاة والسلام، فدعته وأراد أن يربطه إلى سارية من سواري المسجد، يلعب به الصبيان، حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام، فتركه وإذا جاز ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام، كان جائزاً لأولياء الله، والمتبعين=

يظهرون للإنس، وأنّ إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدّعي رؤيتهم زور ومخرفة **﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾** أي: خلينا بينهم وبينهم لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سوّلوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأوّل.

فإن قُلْتَ: علام عطف وقبيله؟ **قُلْتُ:** على الضمير في يراكم المؤكد بهو، والضمير في إنه للشأن والحديث، وقرأ اليزيدي: وقبيله بالنصب وفيه وجهان: أن يعطفه على اسم إن، وأن تكون الواو بمعنى مع، وإذا عطفه على اسم إن وهو الضمير في أنه كان راجعًا إلى إبليس.

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾.

الفاحشة ما تبالغ في قبحه من الذنوب، أي: إذا فعلوها اعتذروا بأنّ آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم، وبأن الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها، وكلاهما[1] باطل من العذر؛ لأنّ أحدهما: تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم، والثاني: افتراء على الله وإلحاد في صفاته، كانوا يقولون لو كره الله منا ما نفعله لنقلنا عنه، عن الحسن: إنّ الله تعالى بعث محمدًا ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله وتصديقه قول الله تعالى: **﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾** لأنّ فعل القبيح مستحيل عليه لعدم الداعي ووجود الصارف فكيف يأمر بفعله؟ **﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾** إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أنّ مبنى قولهم على الجهل المفرط، وقيل: المراد بالفاحشة طوافهم بالبيت عراة.

قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾.

﴿بالقسط﴾ بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل مميز، وقيل: بالتوحيد **﴿وأقيموا وجوهكم﴾** وقل اقيموا وجوهكم أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها **﴿عند كل مسجد﴾** في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود وهو: الصلاة **﴿وادعوه﴾** واعبدوه **﴿مخلصين له الدين﴾** أي: الطاعة مبتغين بها وجه الله خالصًا **﴿كما بدأكم تعودون﴾** كما أنشأكم ابتداء يعيدكم، احتجّ عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق والمعنى: أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿فريقًا هدى﴾ وهم الذين أسلموا أي: وفقهم للإيمان **﴿وفريقًا حق عليهم الضلالة﴾** أي: كلمة الضلالة، وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون، وانتصاب قوله: وفريقًا بفعل مضمر يفسره ما بعده، كأنه قيل: وخذل فريقًا حق عليهم الضلالة **﴿إنهم﴾** إنّ الفريق الذي حقّ عليهم الضلالة **﴿اتخذوا الشياطين أولياء﴾** أي: تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به، وهذا دليل على أنّ علم الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين دون الله.

۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾.

﴿خذوا زينتكم﴾ أي: ريشكم ولباس زينتكم **﴿عند كل مسجد﴾** كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة. وعن طاوس: لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم يطوف عريانًا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت عنه؛ لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل: تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب، وقيل: الزينة المشط، وقيل: الطيب، والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة. وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتًا ولا يأكلون دسمًا يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإنا أحق أن نفعل، فقيل لهم: **﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾** وعن ابن عباس رضي الله عنه: كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة[2]، ويحكى أنّ الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: **﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾** فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب، فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال: قوله: المعدة بيت الداء، والحمية رأس

= لسنة رسول الله ﷺ كرامة، لكن الزمخشري يصدّه عن ذلك جحده لكرامة الأولياء؛ لأنه عقيدة إخوانه إذا الكرامة إنما يؤتاها الوليّ الصادق، فكيف ينالها من يشك في إسلامه، فإنهم لفي عذر من جحدها، والتكذيب بها رزقنا الله الإيمان بالكرامات إن لم نكن لها أهلاً، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً من الاعتزال الخفي، وغرضه أن يمهد قاعدة التحسين والتقبيح، ومراعاة الصلاة، والأصلح، واستحالة مخالفة ذلك على الله تعالى، ولا يتم من ذلك غرض؛ لأنّ المنكر عليهم = دعواهم أنّ الله تعالى، أمرهم بالفحشاء وهم كاذبون في هذه الدعوى، ولا يلزم من سلب الأمر الإرادة؛ لأنّ الله تعالى يأمر بما لا يريد، ويريد ما لا يأمر به.

(2) رواه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: الاختيال في الصدقة، (الحديث رقم: 2559)، وابن ماجة في كتاب: اللباس، باب: البس ما شئت... (الحديث رقم: 3605)، وأحمد في مسنده 20/181، والحاكم في المستدرك 4/135.

الدواء، وأعط كل بدن ما عوّدته[1]، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًا.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿زينة الله﴾ من الثياب وكل ما يتجمل به **﴿والطيبات من الرزق﴾** المستلذات من المآكل والمشارب، ومعنى الاستفهام في **﴿من﴾** إنكار تحريم هذه الأشياء، قيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها **﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾** غير خالصة لهم؛ لأنّ المشركين شركاؤهم فيها **﴿خالصة﴾** لهم **﴿يوم القيامة﴾** لا يشركهم فيها أحد.

فإن قُلْتَ: هلا قيل هي للذين آمنوا ولغيرهم؟ **قُلْتُ:** لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة وأن الكفرة تبع لهم كقوله تعالى: **﴿ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار﴾**[2] وقرئ*: خالصة بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿الفواحش﴾ ما تفاحش قبحه أي: تزايد وقيل: هي ما يتعلق بالفروج **﴿والإثم﴾** عام لكل ذنب، وقيل: شرب الخمر **﴿والبغي﴾** الظلم والكبر أفرده بالذكر كما قال: **﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾**[3] **﴿ما لم ينزل به سلطانًا﴾**[4] فيه تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهانًا بأن يشرك به غيره **﴿وأن تقولوا على الله﴾** وأن تتقوّلوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿ولكل أمّة أجل﴾ وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم. وقرئ*: فإذا جاء آجالهم، وقال: **﴿ساعة﴾**؛ لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة يريد أقصر وقت وأقربه.

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿إمّا ياتينكم﴾ هي: إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة.

فإن قُلْتَ: فما جزاء هذا الشرط **قُلْتُ:** الفاء وما بعده من الشرط والجزاء، والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم والذين كذبوا منكم، وقرئ*: تأتينكم بالتاء.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿فمن أظلم﴾ فمن أشنع ظلمًا ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله **﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾** أي: مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار **﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾** حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له أي: إلى وقت وفاتهم وهي: حتى التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية وهي: إذا جاءتهم رسلنا قالوا و **﴿يتوفونهم﴾** حال من الرسل أي: متوفيهم، والرسل ملك الموت وأعوانه. وما وقعت موصولة بأين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون **﴿ضلوا عنا﴾** غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم اعترافًا منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه وأنهم لم يحمدوه في العاقبة.

قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿قال ادخلوا﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة: لأولئك الذين قال فيهم **﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته﴾**[5] وهم كفار العرب **﴿في أمم﴾** في موضع الحال أي: كائنين في جملة أمم وفي غمارهم مصاحبين له أي: ادخلوا في النار مع أمم **﴿قد خلت من قبلكم﴾** وتقدّم زمانهم زمانكم **﴿لعنت أختها﴾** التي ضلت بالاقتداء بها **﴿حتى إذا اداركوا فيها﴾** أي: تداركوا بمعنى: تلاحقوا واجتمعوا في النار **﴿قالت أخراهم﴾** منزلة وهي الأتباع والسفلة **﴿لأولاهم﴾** منزلة وهي القادة والرؤس، ومعنى: لأولاهم لأجل أولاهم؛ لأنّ خطابهم مع الله لا معهم

---

(1) قال الزيلعي، غريب جدًا 1/460.

(2) سورة البقرة، الآية: 126.

(3) سورة النحل، الآية: 90.

(4) قال أحمد: وإنما يعني: التهكم منه؛ لأنّ الكلام جرى مجرى ما له سلطان، إلا أنه لم ينزل؛ لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به، ولم= = ينف أن يكون به سلطان، وكان أصل الكلام، وأن تشركوا بالله ما لا سلطان به، فينزل، فيكون على طريقة. على لا حب، لا يهتدي بمناره.

(5) سورة الأنعام، الآية: 37.

﴿عذابًا ضعفًا﴾ مضاعفًا ﴿لكل ضعف﴾ لأنّ كلاً من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين ﴿ولكن لا تعلمون﴾ قرئ* بالياء والتاء.

﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة ﴿لكل ضعف﴾ أي: فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فذوقوا العذاب﴾ من قول القادة أو من قول الله لهم جميعًا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾.

﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ لا يصعد لهم عمل صالح ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾[1] ﴿كلا إنّ كتاب الأبرار لفي عليين﴾[2] وقيل: إنّ الجنة في السماء فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء، ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين، وقيل: لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ﴿ففتحنا أبواب السماء﴾[3] وقرئ*: لا تفتح بالتشديد ولا يفتح بالياء، ولا تفتح بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب على أنّ الفعل للآيات، وبالياء على أنّ الفعل لله عز وجل. وقرأ ابن عباس: الجمل بوزن القمل، وسعيد بن جبير: الجمل بوزن النغر، وقرئ*: الجمل بوزن القفل، والجمل بوزن النصب، والجمل بوزن الحبل، ومعناها: القلس الغليظ؛ لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنّ الله أحسن تشبيهًا من أن يشبه بالجمل يعني: أنّ الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة والبعير لا يناسبه، إلا أنّ قراءة العامّة أوقع؛ لأنّ سم الإبرة مثل في ضيق المسلك يقال: أضيق من خرت الإبرة، وقالوا للدليل الماهر: خرّيت للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر، والجمل مثل في عظم الجرم قال:

جسم الجمال وأحلام العصافير

إنّ الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام، فقيل: لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدًا من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع في ثقب الإبرة، وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل فقال: زوج الناقة استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أنّ طلب معنى آخر تكلف. وقرئ*: في سم بالحركات الثلاث. وقرأ عبد الله: في سم المخيط والخياط، والمخيط كالحزام والمحزم ما يخاط به وهو الإبرة ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نجزي المجرمين﴾ ليؤذن أنّ الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب وأنّ كلّ من أجرم عوقب وقد كرّره فقال و ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ لأنّ كلّ مجرم ظالم لنفسه ﴿مهاد﴾ فراش ﴿غواش﴾ أغطية وقرئ*: غواش بالرفع كقوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت﴾[4].

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾.

في قراءة عبد الله ﴿لا نكلف نفسًا إلا وسعها﴾ جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع وهو: الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح، وقرأ الأعمش: لا تكلف نفس. من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزع منه فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التوادّ والتعاطف، وعن عليّ رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم[5] ﴿هدانا لهذا﴾ أي: وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح ﴿وما كنا لنهتدي﴾ اللام[6] لتوكيد النفي يعنون: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه، وفي مصاحف أهل الشام: ما كنا لنهتدي بغير واو على أنها جملة موضحة للأولى ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ فكان لنا لطفًا وتنبيهًا على الاهتداء فاهتدينا، يقولون ذلك سرورًا واغتباطًا بما نالوا وتلذذًا بالتكلم به، لا تقربًا وتعبدًا كما نرى من

---

(1) سورة فاطر، الآية: 10.
(2) سورة المطففين، الآية: 18.
(3) سورة القمر، الآية: 11.
(4) سورة الرحمٰن، الآية: 24.
(5) رواه ابن شيبة في مصنفه 15/282، كتاب: الجمل، باب: سير عائشة.
(6) قال أحمد: وهذه تكفح وجوه القدرية بالردّ، فإنها شاهدة شهادة تامّة مؤكدة باللام على أنّ المهتدي من خلق الله له الهدى، وأنّ غير ذلك محال أن يكون، فلا يهتدي إلا من هدى الله، ولو لم يهده له يهتد، وأما القدرية، فيزعمون أنّ كلّ مهتد خلق لنفسه الهدى، فهو إذاً مهتد، وإن لم يهده الله، إذ هدى الله للعبد خلق الهدى له، وفي زعمهم: أنّ الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى، ولا = يتوقف ذلك على خلقه تعالى الله عما يقولون، ولما فطن الزمخشري ذلك جرى على عادته في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه، فانصف من نفسك واعرض قول القائل المهتدي من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله، أي: يخلق له الهدى على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق، وما كنا لنهتدي، لولا أن هدانا الله، وانظر تباين هذين القولين، أعني: قول المعتزلي في الدنيا، وقول الموحد في الآخرة، «في مقعد صدق»، واختر لنفسك، أي: الفريقين تقتدي به، وما أراك، والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا لقول المحكي عن أولياء الله في دار السلام، منوّهاً به في الكتاب العزيز قول قدري ضال تذبذب مع هواه، وتعصبه في دار الغرور، والزوال نسأل الله حسن المآب، والمآل.

رزق خيرًا في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتمالك أن لا يقوله للفرح لا للقربة ﴿**أن تلكم الجنة**﴾ أن مخففة من الثقيلة تقديره ونودوا بأنه تلكم الجنة ﴿**أورثتموها**﴾ والضمير ضمير الشأن والحديث، أو تكون بمعنى أي؛ لأنّ المناداة من القول كأنه قيل[1]: وقيل لهم أي تلكم الجنة أورثتموها ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة.

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾.

أن في ﴿**أن قد وجدنا**﴾ يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفًا، وكذلك ﴿**أن لعنة الله على الظالمين**﴾ وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطًا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وزيادة في غمهم، ولتكون حكايته لطفًا لمن سمعها، وكذلك قول المؤذن بينهم ﴿**لعنة الله على الظالمين**﴾ وهو ملك يأمره الله فينادي بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار، وقرئ: أنْ لعنة الله بالتشديد والنصب، وقرأ الأعمش: إن لعنة الله بكسر إن على إرادة القول، أو على إجراء أذن مجرى قال.

فإن قُلْتَ[2]: هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ﴿**ما وعدنا ربنا**﴾؟ **قُلْتُ**: حذف ذلك تخفيفًا لدلالة وعدنا عليه، ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع؛ ولأنّ الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْٓا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿**وبينهما حجاب**﴾ يعني: بين الجنة والنار، أو بين الفريقين وهو: السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور﴾[3] ﴿**وعلى الأعراف**﴾ وعلى أعراف الحجاب وهو: السور المضروب بين الجنة والنار وهي: أعاليه جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك ﴿**رجال**﴾ من المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم كأنهم المرجون لأمر الله، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم في دخول الجنة ﴿**يعرفون كلاً**﴾ من زمر السعداء والأشقياء ﴿**بسيماهم**﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها يلهمهم الله ذلك أو تعرفهم الملائكة. إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم ﴿**وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار**﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب استعانوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم. ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم ﴿**أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة**﴾ إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿**ادخلوا الجنة**﴾ يقال لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون، وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدّم والتأخر على حسبها، وأن أحدًا لا يسبق عند الله إلا بسبقة في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً، وقوله: ﴿**إذا صرفت أبصارهم**﴾ فيه أن صارفًا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا. وقرأ

---

(1) قال أحمد: يعني بالمبطلة قوماً سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن بفضل الله وبرحمته**»، قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة**»، فقالوا: صدق رسول الله ﷺ، وهؤلاء هم أهل السنة، قيل لهم فما معنى قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قالوا الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل فضلاً منه ورحمة، لا أنّ ذلك مستحق عليه وواجب للعبادة وجوب الديون، التي لا اختيار في أدائها جمعاً بين الدليلين على وجه يطابق، دليل العقل الدال على أنّ الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء، فانظر أيها المنصف هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطلة، وحاكم نفسك إليها، ثم إذا وضح لك أنهم براء في هذا البر، فاعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على الله تعالى حقاً بأعمالهم، التي لا ينتفع = بوجودها، ولا يتضرر بتركها تعالى، وتقدس عن ذلك ويطلقون القول بلسان الجراءة أن الجنة ونعيمها، أقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى، لا تفضل له عليهم فيه، بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من مديانه، وانظر أي: الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطلة والسلام.

(2) قال أحمد: ولقائل أن يقول، ولو نكر المفعول حسب ما ذكره في الأوّل، فقيل فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، لكان الفعل مطلقاً أيضاً، باعتبار الموعود به؛ لأنه لم ينكر، فكان يتناول كل موعود من البعث والحساب، والعقاب الذي هو أنواع من جملتها، التحسر على نعيم أهل الجنة، فليس ذلك خاصاً بحذف المفعول الواقع على الموعودين، فالوجه أنه إيجاز وتخفتف، واستغناء عنه بالأول، والله أعلم.

(3) سورة الحديد، الآية: 13.

الأعمش: وإذا قلبت أبصارهم. وقرئ*: أدخلوا الجنة على البناء للمفعول، وقرأ عكرمة: دخلوا الجنة.

فإن قُلْتَ: كيف لاءم هاتين القراءتين؟ قله **﴿لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون﴾**؟ **قُلْتُ:** تأويله ادخلوا أو دخلوا الجنّة مقولاً لهم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

فإن قُلْتَ: ما محل قوله: **﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾**؟ **قُلْتُ:** لا محل له لأنه استئناف، كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني: حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا، ويجوز أن يكون له محل بأن يقع صفة لرجال. ما أغنى عنكم جمعكم المال أو كثرتكم واجتماعكم. وما كنتم تستكبرون، واستكباركم عن الحق وعلى الناس وقرئ*: تستكثرون من الكثرة.

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾.

﴿أفيضوا علينا﴾ فيه دليل على أنّ الجنة فوق النار **﴿أو مما رزقكم الله﴾** من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد أو القوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله:

علفتها تبنًا وماءً باردًا

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم كما يفعل المضطر الممتحن **﴿حرمهما على الكافرين﴾** منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر كقوله:

حرام على عيني أن تطعم الكرى

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾.

﴿فاليوم ننساهم﴾ نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا يذكرونهم به **﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾** كما فعلوا بلقائه فعل الناسين فلم يخطروه ببالهم ولم يهتموا به.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿فصلناه على علم﴾ عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه حتى جاء حكيمًا قيمًا غير ذي عوج، وقرأ ابن محيصن: فضلناه بالضاد المعجمة بمعنى: فضلناه على جميع الكتب عالمين أنه أهل للتفضيل عليها و **﴿هدى ورحمة﴾** حال من منصوب فصلناه كما أن على علم حال من مرفوعة.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿إلا تأويله﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد **﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾** أي: تبيّن وصحّ أنهم جاؤوا بالحق **﴿نردّ﴾** جملة معطوفة على الجملة التي قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام كأنه قيل: هل لنا من شفعاء أو هل نردّ، ورافعه وقوعه موقعًا يصلح للاسم كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد، ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه فلا يقدر هل يشفع لنا شافع أو نرد، وقرأ ابن أبي إسحٰق: أو نرد بالنصب عطفًا على فيشفعوا لنا أو تكون أو بمعنى: حتى أن أي يشفعوا لنا حتى نرد فنعمل، وقرأ الحسن: بنصب نرد ورفع فنعمل بمعنى: فنحن نعمل.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ۗ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾.

﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا﴾ وقرئ*: يغشى بالتشديد أي: يلحق الليل بالنهار أو النهار بالليل يحملهما جميعًا، والدليل على الثاني: قراءة حميد بن قيس يغشى الليل النهار بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار أي يدرك النهار الليل، ويطلبه حثيثًا حسن الملاءمة لقراءة حميد **﴿بامره﴾** بمشيئته وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات أي: خلقهنّ جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره وكما يريد أن يصرفها، سمى ذلك أمرًا على التشبيه كأنهنّ مأمورات بذلك. وقرئ*: والشمس والقمر والنجوم مسخرات بالرفع. ولما ذكر أنه خلقهنّ مسخرات بأمره قال: **﴿ألا له الخلق والأمر﴾** أي: هو الذي خلق الأشياء كلها وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾.

﴿تضرعًا وخفية﴾ نصب على الحال أي: ذوي تضرع وخفية. وكذلك خوفًا وطمعًا، والتضرع[1] تفعل من الضراعة

---

(1) قال أحمد: وحسبك في تعين الأسرار في الدعاء، اقترانه بالتضرع في الآية، فالاخلال به، كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى، فكذلك دعاء لا خفية = ولا وقار يصحبه، وترى كثيراً من أهل زماننا يعتمدون الصراخ، والصياح في الدعاء خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشتدّ، وتستد المسامع، وتستك، وتهتز الداعي بالناس، ولا يعلم=

وهو: الذي أي: تذللاً وتملقًا. وقرئ*: وخفية، وعن الحسن رضي الله عنه: إنّ الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفي إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل لا يصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به؛ ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أنّ الله تعالى يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية﴾[1] وقد أثنى على زكريا فقال: ﴿إذ نادى ربّه نداء خفيًا﴾[2] وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا ﴿إنه لا يحبّ المعتدين﴾ أي: المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج هو: رفع الصوت بالدعاء، وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو: الإسهاب في الدعاء، وعن النبي ﷺ: سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل[3]، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ ﴿إنّ رحمة الله قريب من المحسنين﴾ كقوله: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا﴾[4] وإنما نكر قريب على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف أي: شيء قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى: مفعول، كما شبّه ذاك به فقيل: قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر الذي هو: النقيض والضغيب، أو لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقي.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾.

قرئ*: نشرًا وهو: مصدر نشر وانتصابه إمّا لأن أرسل ونشر متقاربان فكأنه قيل نشرها نشرًا، وإمّا على الحال بمعنى: منتشرات، ونشرًا جمع نشور، ونشرًا تخفيف نشر كرسل ورسل، وقرأ مسروق: نشرًا بمعنى: منشورات فعل بمعنى: مفعول كنقض وحسب ومنه قولهم: ضم نشره، وبشرًا جميع بشير وبشرًا بتخفيفه، وبشرًا بفتح الباء مصدر من بشره بمعنى: بشره أي: باشرات وبشرى ﴿بين يدي رحمته﴾ أمام رحمته وهي الغيث الذي هو من أتمّ النعم وأجلها وأحسنها أثرًا ﴿أقلت﴾ حملت ورفعت واشتقاق الإقلال من القلة؛ لأن الرافع المطيق يرى الذي يرفعه قليلاً ﴿سحابًا ثقالاً﴾ سحائب ثقالاً بالماء جمع سحابة ﴿سقناه﴾ الضمير للسحاب على اللفظ ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلاً ﴿لبلد ميت﴾ لأجل بلد ليس فيه حيًا ولسقيه، وقرئ*: ميت ﴿فأنزلنا به﴾ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق وكذلك ﴿فأخرجنا به. كذلك﴾ مثل ذلك الإخراج وهو: إخراج الثمرات ﴿نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ فيؤنّبكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿والبلد الطيب﴾ الأرض العذاة الكريمة التربة ﴿والذي خبث﴾ الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به ﴿بإذن ربه﴾ بتيسيره وهو في موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسنًا وافيًا؛ لأنه واقع في مقابلة ﴿نكدًا﴾ والنكد الذي لا خير فيه. وقرئ*: يخرج نباته أي: يخرجه البلد وينبته، وقوله: ﴿والذي خبث﴾ صفة للبلد ومعناه: والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكدًا، فحذف المضاف الذي هو النبات وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه: إلا أنه كان مجرورًا بارزًا فانقلب مرفوعًا مستكنًا لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدر وبنات الذي خبث. وقرئ*: نكدًا بفتح الكاف على المصدر أي: ذا نكد ونكدًا بإسكانها للتخفيف كقوله: نزه عن الريب بمعنى: نزه، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وعن مجاهد: آدم ونرّيته منهم خبيث وطيب، وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت، والكافر بخلاف ذلك وهذا التمثيل واقع على أثر نكر المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نصرف الآيات﴾ نرددها ونكرّرها ﴿لقوم يشكرون﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويعتبروا بها، وقرئ*: يصرف بالياء أي: يصرفها الله.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

= أنه جميع بين بدعتين رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لا تحصل خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة الآثار، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء، والأطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد؛ لأنها لو كانت من أصل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء وفي خفض الصوت به أوفر، وأوفى، وأزكى، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق، اللهم أرنا الحقّ حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه.

(1) سورة الأعراف، الآية: 55.

(2) سورة مريم، الآية: 3.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، (الحديث رقم: 1480) عن سعد، وأخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن مغفل في كتاب: الدعاء، باب: كراهية الاعتداء بالدعاء (الحديث رقم: 3864) وأحمد في مسنده 4/87، والحاكم في المستدرك (1/540).

(4) سورة طه، الآية: 82.

غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾.

﴿لقد أرسلنا نوحًا﴾ جواب قسم محذوف.

فإن قُلْتَ: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع قد وقل عنهم نحو قوله:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا

قُلْتُ: إما كان ذلك؛ لأنّ الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيدًا للجملة المقسم عليها التي هي جوابها، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو: معنى قد عند استماع المخاطب كلمة القسم. قيل: أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة وكان نجارًا وهو: نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام. وقرئ: غيره بالحركات الثلاث، فالرفع على المحل كأنه قيل: ما لكم إله غيره، والجرّ على اللفظ، والنصب على الاستثناء بمعنى: ما لكم من إله إلاّ إياه كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيدًا وغير زيد.

فإن قُلْتَ: فما موقع الجملتين بعد قوله: ﴿اعبدوا الله﴾؟ قُلْتُ: الأولى: بيان لوجه اختصاصه بالعبادة، والثانية: بيان للداعي إلى عبادته؛ لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدون من دون الله. واليوم العظيم يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو: الطوفان.

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿الملأ﴾ الأشراف والسادة وقيل: الرجال ليس معهم نساء ﴿في ضلال﴾ في ذهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية: رؤية القلب.

فإن قُلْتَ[1]: لم قال ﴿ليس بي ضلالة﴾ ولم يقل ضلال كما قالوا؟ قُلْتُ: الضلالة أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر؟ فقلت مالي تمرة.

فإن قُلْتَ: كيف وقع قوله ﴿ولكني رسول﴾ استدراكًا للانتفاء عن الضلالة؟ قُلْتُ: كونه رسولاً من الله مبلغًا رسالاته ناصحًا في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصحّ لذلك أن يكون استدراكًا للانتفاء عن الضلالة. وقرئ: أبلغكم بالتخفيف.

فإن قُلْتَ[2]: كيف موقع قوله ﴿أبلغكم﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون كلامًا مستأنفًا بيانًا لكونه رسول رب العالمين، والثاني: أن يكون صفة لرسول.

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب؟ قُلْتُ: جاز ذلك؛ لأنّ الرسول وقع خبرًا عن ضمير المخاطب وكان معناه كما قال:

أنا الذي سمتن أمي حيدره

﴿رسالات ربي﴾ ما أوحى إليّ في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جده إدريس وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة ﴿وأنصح لكم﴾ يقال: نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصودًا بها جانبه لا غير، فربّ نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعًا، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي: من صفات الله وأحواله يعني: قدرته الباهرة وشدّة بطشه على أعدائه وأن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين، وقيل: لم يسمعوا بقوم حلّ بهم العذاب قبلهم، فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحي الله إليه، أو أراد، وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحي إليّ بها.

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿أوعجبتم﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم ﴿أن جاءكم﴾ من أن جاءكم ﴿ذكر﴾ موعظة ﴿من ربكم على رجل منكم﴾ على لسان رجل منكم كقوله: ﴿وما وعدتنا على رسلك﴾[3] وذلك أنهم يتعجبون من نبوّة نوح عليه السلام ويقولون: ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾[4] يعنون: إرسال البشر و﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[5] ﴿لينذركم ولتتقوا﴾ ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي: الخشية بسبب الإنذار ﴿ولعلكم ترحمون﴾ ولترحموا

---

(1) قال أحمد: تعليله كون نفيها أبلغ من نفي الضلال، بأنها أخصّ منه غير مستقيم، والله أعلم، فإن نفي الأخصّ أعم من نفي الأعم، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخصّ بخلاف العكس، الا تراك إذا قلت: هذا ليس بإنسان لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيواناً، ولو قلت: هذا ليس بحيوان لاستلزم أن لا يكون إنساناً، فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص، والتحقيق في الجواب أن يقال الضلالة أدنى من الضلال، وأقل؛ لأنا لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه، وأما الضلال فينطلق على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، لا من حيث كونه أخص، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وقد استدرك ابن جنى قوله أبي الطيب:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

عدولاً عن لفظ الغيبة لو كان إلى أدبه، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلان بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب، (قال: فإن قلت لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه، قال: يا قوم ولم يقل، فقال قلت؛ لأنه أخرج الكلام جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل فما قال هود حينئذ قيل قال يا قوم، وكذلك قال الملأ).

(3) سورة آل عمران، الآية: 194.

(4) سورة القصص، الآية: 36.

(5) سورة فصلت، الآية: 14.

بالتقوى إن وجدت منكم.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾.

﴿والذين معه﴾ قيل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: تسعة، بنوه سام وحام ويافث، وستة ممن آمن به.

فإن قُلْتَ: ﴿في الفلك﴾ بم يتعلق؟ **قُلْتُ:** هو متعلق بمعه كأنه قيل: والذين استقرّوا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك، ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان **﴿عمين﴾** عمي القلوب غير مستبصرين، وقرئ: عامين، والفرق بين العمي والعامي أن العمي يدل على عمى ثابت، والعامي على عمى حادث، ونحوه قوله ﴿وضائق به صدرك﴾[1].

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿أخاهم﴾ واحدًا منهم من قولك: يا أخا العرب للواحد منهم وإنما جعل واحدًا منهم؛ لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وهو: هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و **﴿أخاهم﴾** عطف على **﴿نوحًا﴾** و **﴿هودًا﴾** عطف بيان له.

فإن قُلْتَ[2]: لم حذف العاطف من قوله **﴿قال يا قوم﴾** ولم يقل: فقال كما في قصة نوح؟ **قُلْتُ:** هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال يا قوم اعبدوا الله، وكذلك **﴿قال الملأ﴾**.

فإن قُلْتَ: لم وصف الملأ **﴿الذين كفروا﴾** دون الملأ من قوم نوح؟ **قُلْتُ:** كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، ونحوه قوله تعالى: ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة﴾[3] ويجوز أن يكون وصفًا واردًا للذمّ لا غير.

قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾.

في **﴿سفاهة﴾** في خفة حلم وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفًا على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها، وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قال لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أنيالهم على ما يكون منهم.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾.

﴿ناصح أمين﴾ أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة فما خفي أن اتهم، أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه.

أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي: خلقتموهم في الأرض أو جعلكم ملوكًا في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم **﴿في الخلق بسطة﴾** فيما خلق من أجرامكم ذهابًا في الطول والبدانة، قيل: كان أقصرهم ستين ذراعًا وأطولهم مائة ذراع **﴿فانكروا آلاء الله﴾** في استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه، وواحد الآلاء إلا، نحو أني وإناء، وضلع وأضلاع، وعنب وأعناب.

فإن قُلْتَ: إذ في قوله: **﴿إذ جعلكم خلفاء﴾** ما وجه انتصابه؟ **قُلْتُ:** هو مفعول به وليس بظرف أي: اذكروا وقت استخلافكم.

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾.

﴿أجئتنا لنعبد الله وحده﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حبًا لما نشأوا عليه وألفًا لما صادفوا آباءهم يتدينون به.

فإن قُلْتَ: ما معنى المجيء في قوله: **﴿أجئتنا﴾**؟ **قُلْتُ:** فيه أوجه؛ أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلما أوحي إلي جاء قومه يدعوهم[4]، وأن يريدوا به الاستهزاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنّ الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة فكانهم قالوا: أجئتنا من السماء كما يجيء الملك، وأن لا يريدوا حقيقة المجيء، ولكن التعرّض بذلك

---

(1) سورة هود، الآية: 12.

(2) قال أحمد: وحذف العاطف من المقاولة ألا ترى قوله في سورة الشعراء حكاية عن تقاول موسى عليه السلام، وفرعون كيف أسقط ذكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعددة فيها، والسر في ذلك، والله أعلم أنّ العاطف ينتظم الجمل، حتى يصيرها كالجملة الواحدة، فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها في معناه، والله أعلم.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 33.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الوحي، باب (3) (الحديث رقم: 3)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 401).

والقصد كما يقال: ذهب يشتمني ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا: أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ استعجال منهم للعذاب.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾.

﴿قد وقع عليكم﴾ أي: حقّ عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم، جعل المتوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع، ونحوه: قولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ذلك، وعن حسان: أنّ ابنه عبد الرحمٰن لسعه زنبور وهو طفل فجاء يبكي فقال له: يا بني ما لك؟ قال: لسعني طوير كأنه ملتف في بردي حبرة، فضمه إلى صدره وقال له: يا بني قد قلت الشعر والرجس: العذاب من الارتجاس وهو: الاضطراب ﴿في أسماء سميتموها﴾ في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات؛ لأنكم تسمونها آلهة ومعنى الآلهة فيها معدوم محال وجوده وهذا كقوله تعالى: ﴿ما يدعون من دونه من شيء﴾[1] ومعنى سميتموها: سميتم بها من سميته زيدًا. وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم، وقصتهم أن عاد قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها، صداء وصمود والهباء، فبعث الله إليهم هودًا نبيًا وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبًا، فكذبوه وازدادوا عتوًا وتجبرًا، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحرم مسلمهم ومشركهم، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سالم بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلاً منهم: قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه، فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجًا عن الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان كانتا لمعاوية ـ فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال: قد هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه، فذكر ذلك للقينتين فقالتا: قل شعرًا نغنيهم به لا يدرون من قاله، فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم فهبنم ... لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إن عادًا ... قد امسوا ما يبينون الكلاما

فلما غنتا به قالوا: إن قومكم يتغوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد بن سعد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سقيتم، وأظهر إسلامه، فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثدًا لا يقدمن معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال: قيل اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحابًا ثلاثًا بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قيل اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من واد لهم يقال له: المغيث، فاستبشروا بها و ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾[2] فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا.

فإن قُلْتَ: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ **قُلْتُ:** هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ومن نجا مع هود عليه السلام، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خصّ المكذبين ونجى الله المؤمنين.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾.

قرئ: وإلى ثمود بمنع الصرف بتأويل القبيلة، إلى ثمود بالصرف بتأويل الحيّ، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: سميت ثمود: لقلة مائها من الثمد وهو: الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى ﴿قد جاءتكم بينة﴾ آية ظاهرة وشاهد على صحة نبوتي. وكأنه قيل: ما هذه البينة؟ فقال ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ وآية: نصب على الحال والعامل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل، كأنه قيل: أشير إليها آية ولكم بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود؛ لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة، كأنه قال لكم خصوصًا وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيمًا لها وتفخيمًا لشأنها وأنها جاءت من عنده مكونة من غير فحل وطروقة آية من آياته كما تقول: آية الله، وروي أنّ عادًا لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعمارًا طوالاً حتى أنّ الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم صالحًا عليه السلام وكانوا قومًا عربًا وصالح من أوسطهم

(1) سورة العنكبوت، الآية: 42.
(2) سورة الأحقاف، الآية: 24.

نسبًا، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهك وندعوا آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم، ثم قال سيدهم جندع بن عمرو: وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء، والمخترجة التي شاكلت البخت، فإن فعلت صدقناك وأجبناك، فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لنؤمنن ولتصدقن، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى، وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فآمن به جندع ورهط قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غبًا، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها، ثم تتفجج فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعًا، وكانت الناقة إذا وقع الحرّ تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أمّ غنم وصدقة بنت المختار لما أضرّت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي، فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه، فانطلق سقبها حتى رقي جبلاً اسمه: قارة، فرغى ثلاثًا، وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه، وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: تصبحون غدًا ووجوهكم مصفرّة، وبعد غد ووجوهكم محمرّة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودّة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فانجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا **﴿تأكل في أرض الله﴾** أي: الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تأكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من أنباتكم **﴿ولا تمسوها بسوء﴾** لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشيء من الأذى إكرامًا لآية الله، ويروى أنّ رسول الله ﷺ حين مرّ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخلنّ أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم»[1]، وقال ﷺ: «يا عليّ أتدري من أشقى الأوّلين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: عاقر ناقة صالح، أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: قاتلك»[2]، وقرأ أبو جعفر في رواية: تأكل في أرض الله، وهو في موضع الحال بمعنى: آكلة.

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿وبوأكم﴾ ونزلكم والمباءة المنزل **﴿في الأرض﴾** في أرض الحجر بين الحجاز والشام **﴿من سهولها قصورًا﴾** أي: تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر. وقرأ الحسن: وتنحتون بفتح الحاء، وتنحاتون بإشباع الفتحة كقوله:

ينباع من ذفري أسيل حزة

فإن قُلْتَ: علام انتصب **﴿بيوتًا﴾**؟ **قُلْتُ:** على الحال كما تقول: خط هذا الثوب قميصًا وابر هذه القصبة قلمًا، وهي من الحال المقدّرة؛ لأنّ الجبل لا يكون بيتًا في حال النحت ولا الثوب ولا القصبة قميصًا وقلمًا في حال الخياطة والبري، وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾.

﴿الذين استضعفوا﴾ الذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم و **﴿لمن آمن منهم﴾** بدل من الذين استضعفوا.

فإن قُلْتَ[3]: الضمير في **﴿منهم﴾** راجع إلى ماذا؟ **قُلْتُ:** إلى **﴿قومه﴾** أو إلى **﴿الذين استضعفوا﴾**.

فإن قُلْتَ: هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟ **قُلْتُ:** نعم وذلك أنّ الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل من آمن مفسرًا لمن استضعف منهم، فدلّ أنّ استضعافهم كان مقصورًا على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصورًا عليهم ودلّ أنّ المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين **﴿أتعلمون أنّ صالحًا مرسل من ربه﴾** شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية كما تقول للمجسمة: أتعلمون أنّ الله فوق العرش.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر (الحديث رقم: 4419) ومسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا... (الحديث رقم: 7389).

(2) رواه الحاكم في المستدرك 3/141.

(3) قال أحمد: فقوله لمن على الأوّل بدل الشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، وعلى الثاني بدل بعض من كل.

فإن قُلْتَ[1]: كيف صحّ قولهم **﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾** جوابًا عنه؟ **قُلْتُ**: سألوهم عن العلم بإرساله فجعلوا إرساله أمرًا معلومًا مكشوفًا مسلمًا لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون، ولذلك كان جواب الكفرة[2] **﴿إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾** فوضعوا آمنتم به موضع أرسل به ردًا لما جعله المؤمنون معلومًا وأخذوه مسلمًا.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿فعقروا الناقة﴾ أسند العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم **﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾** وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، وأمر ربهم ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله **﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾**[3] وشأن ربهم وهو: دينه ويجوز أن يكون المعنى وصدر عتوّهم عن أمر ربهم كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوّهم، ونحو عن هذه ما في قوله: **﴿وما فعلته عن أمري﴾**[4] **﴿ائتنا بما تعدنا﴾** أرادوا من العذاب، وإنما جاز الإطلاق؛ لأنه كان معلومًا، واستعجالهم له لتكذيبهم به، ولذلك علقوه بما هم به كافرون وهو كونه من المرسلين.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾.

﴿الرجفة﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها **﴿في دارهم﴾** في بلادهم أو في مساكنهم **﴿جاثمين﴾** هامدين لا يتحركون موتى يقال: الناس جثم أي: قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة، ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها[5]: وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمي، وعن جابر أنّ النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة» فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم الله، قالوا: من هو؟ قال: ذاك أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[6]. وروي أنّ صالحًا كان بعثه إلى قوم فخالف أمره، وروي أنه عليه السلام مرّ بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فذكر قصة أبي رغال وأنه دفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب، فابتدروه وبحثوا عنه بأسيافهم فاستخرجوا الغصن»[7].

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾.

﴿فتولى عنهم﴾ الظاهر أنه كان مشاهدًا لما جرى عليهم وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين، تولي مغتم متحسر على ما فاته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول **﴿يا قوم لقد﴾** بذلت فيكم وسعي ولم آل جهدًا في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم **﴿لا تحبون الناصحين﴾** ويجوز أن يتولى عنهم تولي ذاهب عنهم منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب، وروي: أنّ عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت، وروي: أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعًا فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفًا وخمسمائة دار، وروي: أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

فإن قُلْتَ: كيف صحّ خطاب الموتى وقوله: **﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾**؟ **قُلْتُ**: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حيًا فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة: يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني، وقوله: **﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾** حكاية حال ماضية.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿ولوطًا﴾ وأرسلنا لوطًا و **﴿إذ﴾** ظرف لأرسلنا، أو وانكر لوطًا وإذ بدل منه بمعنى وانكر وقت **﴿قال لقومه أتاتون الفاحشة﴾** أتفعلون السيئة المتمادية في القبح **﴿ما سبقكم بها﴾** ما عملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله، ومنه قوله عليه السلام: سبقك بها عكاشة **﴿من أحد من العالمين﴾** من الأولى

---

(1) قال أحمد: وقولهم إنابة مؤمنون ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به بل عن امتثال الواجب والعمل به، ونحن قد امتثلنا.

(2) قال أحمد: ولو طابقوا بين الكلامين، لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون: إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، فأثبت إرساله تهكماً، ليس هذا موضع التهكم، فإنّ الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر، وعلواً في الإصرار.

(3) سورة الأعراف، الآية: 73.

(4) سورة الكهف، الآية: 82.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأشربة، باب: الشراب من في السقاء (الحديث رقم: 3719) والترمذي في كتاب: الأطعمة، باب: ما جاء في أكل لحوم الجلالة وألبانها (الحديث رقم: 1825)، والنسائي في كتاب: الضحايا، باب: النهي عن لبن الجلالة، (الحديث رقم: 3421).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/320، وأحمد في المسند 3/296.

(7) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: نبش القبور العادية يكون فيها المال (الحديث رقم: 3088).

زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض.

فإن قُلْتَ: ما موقع هذه الجملة؟ **قُلْتُ**: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أوّلاً بقوله: أتأتون الفاحشة، ثم وبخهم عليها فقال: أنتم أوّل من عملها، أو على أنه جواب السؤال مقدّر كأنهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به.

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾.

﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ بيان لقوله: **﴿أتأتون الفاحشة﴾** والهمزة مثلها في أتأتون للإنكار والعظيم، وقرئ: إنكم على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال من أتى المرأة إذا غشيها **﴿شهوة﴾** مفعول له أي: للاشتهاء، لا حامل لكم عليه إلا مجرّد الشهوة من غير داع آخر. ولا ذم أعظم منه؛ لأنه وصف لهم بالبهيمة، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه، أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة **﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾** أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات وهو: أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد ونحوه **﴿بل أنتم قوم عادون﴾**[1].

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ يعني: ما أجابوه بما يكون جوابًا عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، ولكنهم جاؤوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرًا بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم وقولهم: **﴿إنهم أناس يتطهرون﴾** سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخارًا بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾.

﴿وأهله﴾ ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين **﴿من الغابرين﴾** من الذين غبروا في ديارهم أي: بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، وكانت كافرة موالية لأهل سدوم، وروي: أنها التفتت فأصابها حجر فماتت. وقيل: كانت المؤتفكة خمس مدائن، وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار، وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم، وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم، وروي أن تاجرًا منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يومًا حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين مطر وأمطر **قُلْتُ**: يقال[2] مطرتهم السماء وواد ممطور، وفي نوابغ الكلم حري غير ممطور حري أن يكون غير ممطور، ومعنى: مطرتهم أصابتهم بالمطر كقولهم غانتهم ووبلتهم وجادتهم ورهمتهم، ويقال: أمطرت عليهم كذا بمعنى: أرسلته عليهم إرسال المطر **﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾**[3] **﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾**[4] ومعنى **﴿وأمطرنا عليهم مطرًا﴾** وأرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيبًا يعني: الحجارة، ألا ترى إلى قوله **﴿فساء مطر المنذرين﴾**[5].

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾.

كان يقال لشعيب عليه السلام: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين **﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾** معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما آمركم به، والانتهاء عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا.

فإن قُلْتَ: ما كانت معجزته؟ **قُلْتُ**: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله: **﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾** ولأنه لا بدّ لمدعي النبوّة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه وكان متنبئًا لا نبيًا، غير أنّ معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ فيه، ومن معجزات شعيب عليه السلام ما روى من محاربة

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 166.

(2) قال أحمد: مقصود المصنف الرد على من يقول: مطرت السماء في الخير، وأمطرت في الشر، ويتوهم أنها تفرقه وضعية، فبين أن أمطرت، معناه: أرسلت شيئاً على نحو المطر، وإن لم يكن ماء حتى لو أرسل الله من السماء أنواعاً من الخيرات، والإرزاق مثلاً، كالمن والسلوى لجاز أن يقال فيه: أمطرت السماء خيرات، أي: أرسلتها إرسال المطر، فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة = الرباعية، ولكن اتفق أنّ المساء لم ترسل شيئاً سوى المطر، إلا وكان عذاباً، فظنّ الواقع اتفاقاً مقصوداً في الوضع، فنبه على تحقيق الأمر فيه، وأحسن، وأجمل.

(3) سورة الأنفال، الآية: 82.

(4) سورة الحجر، الآية: 74.

(5) سورة الشعراء، الآية: 173.

عصى موسى عليه السلام التنين حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصى آدم عليه السلام على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأنّ هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام فكانت معجزات لشعيب.

فإن قُلْتَ: كيف قيل **﴿الكيل والميزان﴾** وهلا قيل المكيال والميزان كما في سورة هود عليه السلام؟ **قُلْتُ:** أريد بالكيل آلة الكيل وهو: المكيال أو سمي: ما يكال به بالكيل، كما قيل العيش لما يعاش به، أو أريد فاوفوا الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر. ويقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه، ومنه قيل للمكس: البخس، وفي أمثالهم: تحسنها حمقاء وهي باخس، وقيل: **﴿أشياءهم﴾** لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئًا إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين، وروي بأنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا: هي زيوف، فقطعوها قطاعًا ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفًا. **﴿بعد إصلاحها﴾** بعد الإصلاح فيها أي: لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، وإضافته كإضافة قوله: **﴿بل مكر الليل والنهار﴾**[1] بمعنى: بل مكركم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف **﴿ذلكم﴾** إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض، أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ومعنى **﴿خير لكم﴾** يعني: في الإنسانية وحسن الأحدوثة وما تطلبونه من التكسب والتربح؛ لأنّ الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** إن كنتم مصدقين لي في قولي ذلكم خير لكم.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾.

﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ ولا تقتدوا بالشيطان في قوله **﴿لاقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾**[2] فتقعدوا بكل صراط أي: بكل منهاج من مناهج الدين، والدليل على أنّ المراد بالصراط: سبيل الحق قوله **﴿وتصدون عن سبيل الله﴾** ومحل **﴿توعدون﴾** وما عطف عليه النصب على الحال أي: ولا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله وباغيها عوجًا.

فإن قُلْتَ: صراط الحق واحد **﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾**[3] فكيف قيل بكل صراط **قُلْتُ:** صراط الحق واحد ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحدًا يشرع في شيء منها أوعدوه وصدوه.

فإن قُلْتَ: إلامَ يرجع الضمير في **﴿آمن به﴾ قُلْتُ:** إلى كل صراط تقديره توعدون من آمن به وتصدون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير زيادة في تقبيح أمرهم ودلالة على عظم ما يصدون عنه، وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد فيقولون لمن مرّ بهم: أنّ شعيبًا كذاب فلا يفتنكم عن دينكم كما كان يفعل قريش بمكة، وقيل: كانوا يقطعون الطرق، وقيل: كانوا عشارين **﴿وتبغونها عوجًا﴾** وتطلبون لسبيل الله عوجًا أي: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة لتصدّوهم عن سلوكها والدخول فيها، أو يكون تهكمًا بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محال؛ لأنّ طريق الحق لا يعوج **﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً﴾** إذ مفعول به غير ظرف، أي: وانكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم **﴿فكثركم﴾** الله ووفر عددكم قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط، فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا، ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم فجعلكم مكثرين موسرين، أو كنتم أقلة أنلة فاعزكم بكثرة العدد والعدد **﴿عاقبة المفسدين﴾** آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة.

وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿فاصبروا﴾ فتربصوا وانتظروا **﴿حتى يحكم الله بيننا﴾** أي: بين الفريقين بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم، وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم كقوله: **﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾**[4] وهو عظة للمؤمنين وحثّ على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم، ويجوز أن يكون خطابًا للفريقين أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب **﴿وهو خير الحاكمين﴾** لأنّ حكمه حق وعدل لا يخاف فيه الحيف. أي: ليكونن أحد الأمرين إمّا إخراجكم وإمّا عودكم في الكفر.

---

(1) سورة سبأ، الآية: 33.

(2) سورة الأعراف، الآية: 16.

(3) سورة الأنعام، الآية: 153.

(4) سورة التوبة، الآية: 52.

فإن قُلْتَ[1]: كيف خاطبوا شعيبًا عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم ﴿**أو لتعودنّ في ملتنا**﴾؟ وكيف أجابهم بقوله ﴿**إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها**﴾ والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟ **قُلْتُ**: لما قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: لتعودنّ فغلبوا الجماعة على الواحد فجعلوهم عائدين جميعًا إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهو يريد عود قومه إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئًا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿**وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله**﴾ والله[2] تعالى متعال أن يشاء ردّة المؤمنين وعودهم في الكفر؟ **قُلْتُ**: معناه: إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألطاف لعلمه أنها لا تنفع فينا وتكون عبثًا والعبث قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: ﴿**وسع ربنا كل شيء علمًا**﴾ أي: هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل وقلوبهم كيف تتقلب وكيف تقسو بعد الرقة وتمرض بعد الصحة وترجع إلى الكفر بعد الإيمان ﴿**على الله توكلنا**﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لا زياد الإيقان، ويجوز أن يكون قوله ﴿**إلا أن يشاء الله**﴾[3] حسمًا لطمعهم في العود؛ لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة. ﴿**أوَلو كنا كارهين**﴾ الهمزة للاستفهام، والواو واو الحال تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ومع كوننا كارهين، وما يكون لنا وما ينبغي لنا وما يصحّ لنا ﴿**ربنا افتح بيننا**﴾ احكم بيننا، والفتاحة: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا ﴿**وبين قومنا**﴾ وينكشف بأن تنزل عليهم عذابًا يتبين معه أنهم على الباطل ﴿**وأنت خير الفاتحين**﴾ كقوله: ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾[4].

فإن قُلْتَ: كيف أسلوب قوله: ﴿**قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا في ملتكم**﴾؟ **قُلْتُ**: هو إخبار مقيد بالشرط وفيه وجهان أحدهما: أن يكون كلامًا مستأنفًا فيه معنى التعجب كأنهم قالوا: أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأن المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر؛ لأنّ الكافر مفتر على الله الكذب حيث يزعم أنّ الله ندًا ولا ند له، والمرتد مثله في ذلك وزائد عليه حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل، والثاني: أن يكون قسمًا على تقدير حذف اللام بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذبًا.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾.

﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه**﴾ أي: أشرافهم للذين دونهم يثبطونهم عن الإيمان ﴿**لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون**﴾ لاستبدالكم الضلالة بالهدى كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾[5] وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية.

فإن قُلْتَ: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في ﴿**لئن اتبعتم شعيبًا**﴾ وجواب الشرط؟ **قُلْتُ**: قوله: ﴿**إنكم إذًا**

---

(1) قال أحمد: والزمخشري بنى هذا الكلام على أنّ صيغة العود تستدعي رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل، والتحقيق في الجواب عن السؤال المذكور مع اقتضاء العود لذلك، أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى صار، وحينئذ يجوز أن يكون أخاً لكان، ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك، وهو: الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتنفة مثل صار، وكأنهم قالوا والله أعلم: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتصيرنّ كفاراً مثلنا، وحينئذ يندفع السؤال أو يسلم استعمال العود، بمعنى: الرجوع إلى أمر سابق، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً، فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أنّ المؤمن الناشيء في الإيمان، لم يدخل قط في ظلمة الكفر، ولا كان فيها وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان، ولا كان فيه، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية، التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متكناً منه لو أراده، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عن الإيمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور توفيقاً من الله له، ولطفاً به، وبالعكس في حق الكافر، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة = بالهدى﴾ وهو: من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب، وفائدة اختياره في هذا المواضع تحقيق التمكن، والاختيار لإقامة حجة الله على عباده، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وهذا السؤال كما ترى مفرع على القاعدة الفاسدة في اعتقاد وجوب رعاية الصلاح، والأصلح، وهو غير موجه على قاعدة السنة، فظاهر الآية، هو المعوّل عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله، وأمّا الاستدلال الزمخشري على صحة تأويله، بقوله: وسع ربنا كل شيء علماً، فمن احتيالاته في التأويلات الباطلة يعضدها ويتبع الشبه، ويلفقها وموقع قوله وسع ربنا كل شيء علماً، الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة، والاطلاع على الأمور الغائبة، فإنّ العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع العبد ولو وقع فبقدرة الله ومشيئته المغيبة عن خلقه، فالحذر قائم والخوف لازم، ولكن لمن وفقه الله تعالى للعقيدة الصحيحة، والإيمان السالم، والله الموفق، ونظيره قول إبراهيم عليه السلام، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء، علماً لما ردّ الأمر إلى المشيئة، وهي مغيبة مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات، والله أعلم.

(3) قال أحمد: وهذا من الطراز الأوّل، فألحقه به وسحقاً سحقاً.

(4) سورة الأعراف، الآية: 87.

(5) سورة البقرة، الآية: 16.

لخاسرون﴾ سادّ مسدّ الجوابين.

ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾.

﴿الذين كذبوا شعيبًا﴾ مبتدأ خبره **﴿كان لم يغنوا فيها﴾** وكذلك **﴿كانوا هم الخاسرون﴾** وفي هذا الابتداء معنى: الاختصاص كأنه قيل: الذين كذبوا شعيبًا هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا كأن لم يقيموا في دارهم؛ لأنّ الذين اتبعوا شعيبًا قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعيبًا هم المخصوصون بالخسران العظيم دون اتباعه فإنهم الرابحون، وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير مبالغة في ردّ مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾.

الأسى: شدّة الحزن قال العجاج:

وانجلبت عيناه من فرط الأسى

اشتدّ حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال: فكيف يشتدّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم، ويجوز أن يريد: لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حلّ بكم فلم تسمعوا قولي ولم تصدقوني فكيف آسى عليكم؟ يعني: أنه لا يأسى عليهم؛ لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى. وقرأ يحيى بن وثاب: فكيف إيسي بكسر الهمزة.

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾.

﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء﴾ بالبؤس والفقر **﴿والضراء﴾** بالضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه **﴿لعلهم يضرعون﴾** ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة **﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾** أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والصحة والسعة كقوله: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾[1]

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾.

﴿حتى عفوا﴾ كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، من قولهم: عفا النبات وعفا الشحم والوبر إذا كثرت، ومنه قوله ﷺ: «واعفوا اللحى» وقال الحطيئة:

بمستأسد القريان عاف نباته

وقال:

ولكننا نعض السيف منها ... بأسوق عافيات الشحم كوم

﴿وقالوا قد مس آبائنا الضراء والسراء﴾ يعني: أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا: هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آباءنا نحو ذلك، وما هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب **﴿فأخذناهم﴾** أشدّ الأخذ وأفظعه وهو: أخذهم فجأة من غير شعور منهم. اللام في القرى إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله: **﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾**[2] كأنه قال: ولو أنّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾.

﴿آمنوا﴾ بدل كفرهم **﴿واتقوا﴾** المعاصي مكان ارتكابها **﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾** لآتيناهم بالخير من كل وجه، وقيل: أراد المطر والنبات **﴿ولكن كذبوا فأخذناهم﴾** بسوء كسبهم، ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس.

فإن قُلْتَ: ما معنى فتح البركات عليهم؟ **قُلْتُ:** تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها، ومنه قولهم: فتحت على القارئ إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليه بالتلقين. البيات يكون بمعنى: البيتوتة، يقال: بات بياتًا ومنه قوله تعالى: **﴿فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون﴾**[3] وقد يكون بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم يقال: بيته العدو بياتًا، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا بائتين، أو وقت بيات أو مبيتًا أو مبيتين، أو يكون بمعنى: تبييتًا، كأنه قيل: أن بيتهم بأسنا بياتًا و**﴿ضحى﴾** نصب على الظرف يقال: أتانا ضحى وضحيًا وضحاء، والضحى في الأصل: اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت.

والفاء والواو في أفأمن واو أمن حرفًا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار.

فإن قُلْتَ: ما المعطوف عليه ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ **قُلْتُ:** المعطوف عليه قوله: فأخذناهم بغتة، وقوله: **﴿ولو أن أهل القرى﴾** إلى **﴿يكسبون﴾** وقع اعتراضًا بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطف بالفاء؛ لأنّ المعنى فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك من أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى. وقرئ أو أمن على العطف بأو **﴿وهم يلعبون﴾**

(1) سورة الأعراف، الآية: 168.

(2) سورة الأعراف، الآية: 94.

(3) سورة الأعراف، الآية: 4.

يشتغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون.

فإن قُلْتَ: فلم رجع فعطف بالفاء قوله: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾؟ **قُلْتُ:** هو تكرير لقوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ ومكر الله استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين والبيات والغيلة، وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت له: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه إنّ أباك يخاف البيات، أراد قوله: ﴿أن ياتيهم باسنا بياتًا﴾.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾.

إذا قرئ ﴿أولم يهد﴾ بالياء كان ﴿أن لو نشاء﴾ مرفوعًا بأنه فاعله بمعنى: أولم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن وهو: إنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين، وإذا قرئ بالنون فهو منصوب كأنه قيل: أولم يهد الله للوارثين هذا الشأن بمعنى: أوَلم نبين لهم أنا ﴿لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ كما أصبنا من قبلهم، وإنما عدي فعل الهداية باللام؛ لأنه بمعنى التبيين.

فإن قُلْتَ[1]: بم تعلق قوله تعالى: ﴿ونطبع على قلوبهم﴾؟ **قُلْتُ:** فيه أوجه: أن يكون معطوفًا على ما دلّ عليه معنى ﴿أولم يهد﴾ كأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم، أو على ﴿يرثون الأرض﴾ أو يكون منقطعًا بمعنى: ونحن نطبع على قلوبهم.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ونطبع بمعنى وطبعنا، كما كان لو نشاء بمعنى لو شئنا، ويعطف على أصبناهم؟ **قُلْتُ:** لا يساعد عليه المعنى؛ لأن القوم كانوا مطبوعًا على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها، وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة وأنّ الله تعالى لو شاء لاتصفوا بها.

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾.

﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ كقوله: ﴿هذا بعلي شيخًا﴾[2] في أنه مبتدأ وخبر وحال، ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خبرًا، وأن يكون القرى نقص خبرًا بعد خبر.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿تلك القرى﴾ حتى يكون كلامًا مفيدًا؟ **قُلْتُ:** هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالحال، كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك: هو الرجل الكريم.

فإن قُلْتَ: ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟ **قُلْتُ:** معناه أنّ تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أوّلاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين لا يرعون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات، ومعنى اللام: تأكيد النفي وأنّ الإيمان كان منافيًا لحالهم في التصميم على الكفر، وعن مجاهد هو كقوله: ﴿ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه﴾[3] ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾.

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ الضمير للناس على الإطلاق أي: وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعني: أنّ أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى ﴿وإن وجدنا﴾ وإنّ الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة مارقين، والآية اعتراض، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة ﴿لئن أنجيتنا.. لنؤمننّ﴾[4] ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك﴾[5] إلى قوله: ﴿إذا هم ينكثون﴾[6] والوجود بمعنى العلم من قولك: وجدت زيدًا ذا

---

(1) قال أحمد: بل يجوز والله عطفه عليه، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع، ولا يضرهم إن كانوا كفاراً، أو مقترفين للذنوب، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنب، ولا بد إذ الطبع هو التمادي على الكفر، والإصرار، والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به ما يوسا من قبوله للحق، ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة بلى إن الكافر يهدد من تماديه على كفره بأن يطبع الله على قلبه، فلا يؤمن أبداً، وهو مقتضى العطف على أصبناهم، فتكون الآية على قد هددتهم بأمرين، أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم، والآخر: الطبع على قلوبهم، وهذا الثاني أشدّ من الأول، وهو أيضاً: نوع من الإصابة بالذنوب، أو العقوبة عليها، ولكنه أنكى أنواع العذاب، وأبلغ صنوف العقاب، وكثيراً ما يعاقب الله على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه، وعلى الكفر = بزيادة التصميم عليه، والغلو فيه، كما قال تعالى: ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم، كما زادت المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم﴾ وهذا النوع من الثواب، والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه وجزاء عليه، فثواب الإيمان إيمان، وثواب الكفر كفر، وإنما الزمخشري يحانر من هذا الوجه دخول الطبع في مشيئة الله تعالى، وذلك عنده محال؛ لأنه قبيح والله عنده متعال، وأني يتم الفرار من الحق، وكم من آية صرحت بوقوع الطبع من الله فضلاً عن تعلق المشيئة به.

(2) سورة هود، الآية: 72.

(3) سورة الأنعام، الآية: 28.

(4) سورة يونس، الآية: 22.

(5) سورة الأعراف، الآية: 134.

(6) سورة الأعراف، الآية: 135.

الحفاظ، بدليل دخول إن المخففة واللام الفارقة ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدأ والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

فإن قُلْتَ:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾.

﴿من بعدهم﴾ الضمير المرسل في قوله **﴿ولقد جاءتهم رسلهم﴾**[1] أو للأمم **﴿فظلموا بها﴾** فكفروا بآياتنا أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من واد واحد **﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾**[2] أو فظلموا الناس بسببها حين أوعدوهم وصدّوهم عنها وآذوا من آمن بها، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلمًا فلذلك قيل **﴿فظلموا بها﴾** أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه وهو موضع الإيمان.

يقال لملوك مصر: الفراعنة كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة فكأنه قال: يا ملك مصر وكان اسمه: قابوس، وقيل الوليد بن مصعب بن الريان **﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾** فيه[3] أربع قرآت: المشهورة وحقيق عليّ أن لا أقول وهي: قراءة نافع، وحقيق أن لا أقول، وهي: قراءة عبد الله، وحقيق بأن لا أقول وهي: قراءة أبيّ، وفي المشهورة إشكال ولا تخلو من وجوه أحدها: أن تكون مما يقلب من الكلام لا من الإلباس كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح، وحقيق عليّ أن لا أقول وهي قراءة نافع، والثاني: أنّ ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقًا عليه كان هو حقيقًا على قول الحق أي: لازمًا له، والثالث: أن يضمن حقيق معنى: حريص كما ضمن هيجني معنى تكرني في بيت الكتاب، والرابع وهو: الأوجه إلا دخل في نكت القرآن أن يعرق موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام لا سيما وقد روي أنّ عدوّ الله فرعون قال له: لما قال: **﴿إني رسول من رب العالمين﴾** كذبت، فيقول: أنا حقيق عليّ قول الحق أي: واجب عليّ قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به ولا يرضى إلا بمثلي ناطقًا به **﴿فارسل معي بني إسرائيل﴾** فخلهم حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم، وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي وانقرضت الأسباط، غلب فرعون نسلهم واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام.

فإن قُلْتَ: كيف قال له **﴿فأت بها﴾**؟ بعد قوله: إن **﴿كنت جئت بآية﴾**؟ **قُلْتُ:** معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأتني بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك.

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾.

﴿ثعبان مبين﴾ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان، وروي أنه كان ثعبانًا ذكرًا أشعر فاغرًا فاه بين لحييه وثمانون ذراعًا، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه، فوثب فرعون من سريره وهرب، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا قتل بعضهم بعضًا، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصى.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 101.

(2) سورة لقمان، الآية: 13.

(3) قال أحمد: القلب يستعمل في اللغة على وجهين، أحدهما: قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

وكقوله:

قد صرح السر عن كتمان وابتذلت ... وضع المحاجن بالمهرية النقن

فالحقيقة أنّ الضياطرة تشقى بالرماح، والمهرية تبتذل بالمحاجن، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أنّ الرماح قد تنقصد، وتتقصف في أجوافهم، فعبر عن ذلك بالشقاء، وأنّ المحاجن كثيراً ما ترفع وتوضع وتستعمل في ضرب المهرية، وربما تمزقت عن ذلك، فجعل ذلك ابتذالاً لها، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً في أمثال قوله:

والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به ... وللسيوف كما للناس آجال =

= والمراد بشقاء السيف: انقطاعه في اضلاع المضروب، كما صرّح بذلك في قوله:

طوال الرديني يقصفها دمى ... وبيض السريجيات يقطعها لحمى

الوجه الثاني: قلب معرّى عن هذا المعنى البليغ، ولذلك لا يستفصح، كقولهم خرق الثوب المسمار وأشباهه وعلى الوجه الاول الأفصح جاءت الآية على هذه القراءة، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشري، وفي طيه من المبالغة ما نبهت عليه، وأمّا الوجه الثاني، وهو أنّ ما لزمك فقد لزمته، ففيه نظر من حيث أنّ اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر، ولزوم موسى عليه لقول الحق من هذا النمط وأما الوجه الثالث: فلا يلائم بين القراءتين، وقد نكر لها وجه خامس، وهو أن يكون على بمعنى الباء، ونقل رميت على القوس بمعنى: رميت بالقوس، وهو وجه حسن يلائم، والله أعلم، ويشهده قراءة أبيّ حقيق بأن لا أقول.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق ﴿**للناظرين**﴾؟ **قُلْتُ:** يتعلق ببيضاء والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضًا عجيبًا خارجًا عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال: وما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فإذا هي بيضاء بياضًا نورانيًا غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة ﴿**إن هذا لساحر عليم**﴾ أي: عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه حتى خيل إليهم العصى حية والآدم أبيض.

فإن قُلْتَ: قد عزي هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء وأنه قاله للملأ، وعزي ههنا إليهم **قُلْتُ:** قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله ثم وقولهم ههنا، أو قاله ابتداء فنلفته منه الملأ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما يفعل الملوك، يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامّة، والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم ﴿**أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم**﴾ وقرئ: سحار أي: يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة، أو بخير منه، وكانت هذه مؤامرة مع القبط، وقولهم: ﴿**فماذا تأمرون**﴾؟ من أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي، وقيل: فماذا تأمرون من كلام فرعون قاله للملأ: لما قالوا له ﴿**إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم**﴾ كأنه قيل: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه معنى أرجئه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما، وقيل: احبسهما، وقرئ: أرجئه بالهمزة وأرجه من أرجاه وأرجاه.

فإن قُلْتَ: هلا قيل وجاء السحرة فرعون فقالوا؟ **قُلْتُ:** هو على تقدير سائل سأل ما قالوا إذ جاؤه؟ فأجيب بقوله ﴿**قالوا ائن لنا لأجرًا**﴾ أي: جعلا على الغلبة، وقرئ: إنّ لنا لأجرًا على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم كقول العرب: إنّ له لإبلاً وإن له لغنمًا يقصدون الكثرة.

فإن قُلْتَ: ﴿**وإنكم لمن المقرّبين**﴾ ما الذي عطف عليه؟ **قُلْتُ:** هو معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب كأنه قال إيجابًا لقولهم ﴿**إنّ لنا لأجرًا**﴾ نعم إن لكم لأجرًا، وإنكم لمن المقرّبين: أراد إني لا أقتصر بكم على الثواب وحده وإن لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب وهو: التقريب والتعظيم؛ لأنّ المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة، وروي أنه قال لهم: تكونون أوّل من يدخل، وآخر من يخرج، وروي أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا: قد علمنا سحرًا لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمرًا من السماء فإنه لا طاقة لنا به، وروي أنهم كانوا ثمانين ألفًا، وقيل: سبعين ألفًا، وقيل: بضعة وثلاثين ألفًا، واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر، وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى، وقيل: قال فرعون لا نغالب موسى إلا بما هو منه يعني السحر. تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا، كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع.

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ ٱلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾.

وقولهم: ﴿**وإمّا أن نكون نحن الملقين**﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل، وقد سوغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي وأنّ المعجزة لمن يغلبها سحر أبدًا ﴿**سحروا أعين الناس**﴾ أروها[1] بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه كقوله تعالى: ﴿يخيل إليه ن سحرهم أنها تسعى﴾[2] روي أنهم ألقوا حبالاً غلاظًا وخشبًا طوالاً فإذا هي أمثال الحيات قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضًا ﴿**واسترهبوهم**﴾ وأرهبوهم إرهابًا شديدًا كأنهم استدعوا رهبتهم ﴿**بسحر عظيم**﴾ في باب السحر. روي أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيهم ما يوهم الحركة قيل: جعلوا فيها الزئبق.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾.

﴿**ما يأفكون**﴾ ما موصولة أو مصدرية بمعنى: ما يأفكونه أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوّرونه، أو

---

(1) قال أحمد: معتقد المعتزلة إنكار وجود السحر، والشياطين، والجن في خبط طويل لهم، ومعتقد أهل السنة إقرارها لظواهر على ما هي عليه؛ لأنّ العقل لا يحيل وجود ذلك، وقد ورد السمع بوقوعه، فوجب الإقرار بوجوده ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء ويستدق، فيتولج في الكوة الضيقة، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر، ما يستأثر الاقتدار عليه، وذلك واقع بقدرة الله تعالى عند إرشاد الساحر هذا، هو الحق، والمعتقد الصدق، وإنما أجريت هذا الفصل؛ لأنّ كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره، إلا أنّ هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن= = التصريح بالدفاع، وكشف القناع، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس، عما في نفهس، فيسميه شعوذة وحيلة، وبالقطع يعلم أنّ الشعوذة والحيلة لا تعلم في يد ابن عمر رضي الله عنه، حتى بكوعها، ولا تؤثر في سيد البشر، حتى يخيل إليها أنه يأتي نساءه، وهو لا يأتيهن، وقد ورد ذلك وأمثاله مستفيضاً واقعاً، فالعمدة أن كل واقع، فبقدرة الله تعالى، فلا يمتنع أن يوقع تعالى بقدرته عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء، ويهدي بها من يشاء، والله الموفق.

(2) سورة طه، الآية: 66.

إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك، روي أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصى كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحرًا لبقيت حبالنا وعصينا.

فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾.

﴿فوقع الحق﴾ فحصل وثبت، ومن بدع التفاسير فوقع قلوبهم أي: فأثر فيها من قولهم: فاس وقيع **﴿وانقلبوا صاغرين﴾** وصاروا أذلاء مبهوتين **﴿وألقي السحرة﴾** وخروا سجدًا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم، وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا. عن قتادة: كانوا أول النهار كفارًا سحرة، وفي آخره شهداء بررة وعن الحسن: تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسهم لله.

﴿آمنتم به﴾ على الإخبار أي: فعلتم هذا الفعل الشنيع توبيخًا لهم وتقريعًا، وقرئ: أآمنتم بحرف الاستفهام ومعناه: الإنكار والاستبعاد **﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾** أن صنعكم هذه الحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو: أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون تمويهًا على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، وروي أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك، قال: لآتين بسحر لا يغلبه سحر، وإن غلبتني لأومنن بك، وفرعون يسمع فلذلك قال ما قال **﴿فسوف تعلمون﴾** وعيد أجمله ثم فصله بقوله **﴿لأقطعن﴾** وقرئ: لأقطعن بالتخفيف وكذلك ثم لأصلبنكم **﴿من خلاف﴾** من كل شق طرفًا. وقيل: إن أول من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾.

﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ فيه أوجه أن يريدوا إنا لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك، أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب، وإنا جميعًا يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا، أو أنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه.

وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾.

﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان ومنه قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

﴿أفرغ علينا صبرًا﴾ هب لنا صبرًا واسعًا وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء فراغًا، وعن بعض السلف: إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنوبًا ثم يقول: قد مازحتك أي: يغمره بالحياء والخجل، أو صب علينا ما يطهرنا من أوضار الآثام وهو الصبر على ما توعدنا به فرعون؛ لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم **﴿وتوفنا مسلمين﴾** ثابتين على الإسلام.

وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾.

﴿ويذرك﴾ عطف على يفسدوا؛ لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم وكان ذلك مؤديًا إلى ما دعوه فسادًا وإلى تركه وترك آلهته فكأنه تركهم لذلك، أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء نحو قول الحطيئة:

ألم أك جاركم ويكون بيني ... وبينكم المودة والإخاء

والنصب بإضمار أن تقديره أيكون منك ترك موسى، ويكون تركه إياك وآلهتك، وقرئ: ويذرك وآلهتك بالرفع عطفًا على أتذر موسى بمعنى أتذره وأيذرك يعني: تطلق له ذلك، أو يكون مستأنفًا، أو حالاً على معنى: أتذره وهو يذرك وآلهتك، وقرأ الحسن: ويذرك بالجزم كأنه قيل يفسدوا، كما قرئ: **﴿وأكن من الصالحين﴾**[1] كأنه قيل أصدق، وقرأ أنس رضي الله عنه: ونذرك بالنون والنصب أي: يصرفنا عن عبادتك فنذرها، وقرئ: ويذرك وإلاهتك أي: عبادتك، وروي أنهم قالوا له ذلك؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: صنع فرعون لقومه أصنامًا وأمرهم أن يعبدوها تقربًا إليه، كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ويقولون: **﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾**[2] ولذلك قال: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**[3] **﴿سنقتل أبناءهم﴾** يعني: سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه وأنه منتظر بعد.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ

---

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.
(2) سورة الزمر، الآية: 3.
(3) سورة النازعات، الآية: 24.

يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾.

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله﴾ قال لهم ذلك حين قال فرعون **﴿سنقتل أبناءهم﴾**[1] فجزعوا منه وتضجروا يسكنهم ويسليهم ويعدهم النصرة عليهم ويذكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم.

فإن قُلْتَ: لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على التي قبلها؟ **قُلْتُ:** هي جملة مبتدأة مستأنفة وأمّا **﴿وقال الملأ﴾** فمعطوفة على ما سبقها من قوله: **﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾**[2] وقوله: **﴿إن الأرض لله﴾** يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة كقوله: **﴿وأورثنا الأرض﴾**[3] وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر؛ لأنها من جنس الأرض، كما قال ضمرة: إنما المرء بأصغريه، فأراد بالمرء الجنس وغرضه أن يتناوله تناولاً أوليًا **﴿والعاقبة للمتقين﴾** بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط وأن المشيئة متناولة لهم، وقرأوا: العاقبة للمتقين بالنصب، أبيّ وابن مسعود عطفًا على الأرض.

قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾.

﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾

يعنون: قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبئ وأعادته عليهم بعد ذلك، وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسون به من العذاب **﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾** تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر **﴿فلينظر كيف تعملون﴾** فيري الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم، وعن عمرو بن عبيد رحمه الله: أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعدما استخلف فذكر له ذلك وقال: قد بقي **﴿فينظر كيف تعملون﴾**

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾.

﴿بالسنين﴾ بسني القحط، والسنة من الأسماء الغالبة، كالدابة، والنجم ونحو ذلك، وقد اشتقوا منها فقالوا: أسنت القوم بمعنى: أقحطوا، وقال ابن عباس رضي الله عنه: أما السنون، فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم، وأمّا نقص الثمرات فكان في أمصارهم، وعن كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة **﴿لعلهم يذكرون﴾**[4] فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم لآيات الله؛ ولأنّ الناس في حال الشدّة أضرع خدودًا وألين أعطافًا وأرق أفئدة، وقيل: عاش فرعون أربعمائة سنة ولم ير مكروهًا في ثلثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدّة وجع أو جوع أو حمى لما ادّعى الربوبية[5].

فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ من الخصب والرخاء **﴿قالوا لنا هذه﴾** أي: هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية، واللام مثلها في قولك: الجل للفرس **﴿وإن تصبهم سيئة﴾** من ضيقة وجدب **﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾** يتطيروا بهم ويتشاءموا ويقولوا: هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول الله ﷺ: هذه من عندك.

فإن قُلْتَ: كيف قيل؟ **﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾** بإذا وتعريف الحسنة، **﴿وإن تصبهم سيئة﴾** بإن وتنكير السيئة **قُلْتُ:** لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه، وأمّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها، ومنه قول بعضهم: قد عددت أيام البلاء فهل عددت أيام الرخاء **﴿طائرهم عند الله﴾** أي: سبب خيرهم وشرهم عند الله، وهو حكمه ومشيئته والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه كقوله تعالى: **﴿قل كل من عند الله﴾**[6] ويجوز أن يكون معناه ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عند الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: **﴿النار يعرضون عليها﴾**[7] الآية ولا طائر أشأم من هذا، وقرأ الحسن: إنما طيركم عند الله وهو اسم لجمع طائر غير تكسيره، ونظيره التجر والركب، وعند أبي الحسن هو: تكسير.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 127.

(2) سورة الأعراف، الآية: 109.

(3) سورة الزمر، الآية: 74.

(4) قال أحمد: دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة، وأمّا دعوى اختصاصها بهم، حتى لا يشركهم فيها أحد، فدل عليه تقديم الخبر الذي هو لنا، وقد علمت طريقة المصنف في إسناده الحصر من تقديم ما حقه أن يؤخر، كالمفعول والخبر ونحوه.

(5) قال أحمد: وقد ورد وإن تصبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك، فلم يراع فرق ما بينهما، ولعلّ بين سياق الآيتين اختلافاً أوجب في كل واحد منهما ما ذكر فيه.

(6) سورة النساء، الآية: 78.

(7) سورة غافر، الآية: 46.

وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾.

﴿مهما﴾[1] هي ما المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها ما المزيدة المؤكدة للجزاء في قولك: متى تخرج أخرج **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾**[2] **﴿فإما نذهبن بك﴾**[3] إلا أنّ الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصري، ومن الناس من زعم: أنّ مه هي الصوت الذي يصوت به الكاف، وما للجزاء، كأنه قيل: كف ما تأتنا به **﴿من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾**.

فإن قُلْتَ: ما محل **﴿مهما﴾**؟ **قُلْتُ:** الرفع بمعنى أيما شيء تأتنا به، أو النصب بمعنى أيما شيء تحضرنا تأتنا به، ومن آية تبين لمهما والضميران في به وبها راجعان إلى مهما إلا أنّ أحدهما: ذكر على اللفظ، والثاني: أنث على المعنى؛ لأنه في معنى الآية، ونحوه قول زهير:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية فيضعها غير موضعها ويحسب مهما بمعنى: متى ما ويقول: مهما جئتني أعطيتك، وهذا من وضعه وليس من كلام واضع العربية في شيء، ثم يذهب فيفسر **﴿مهما تأتنا به من آية﴾** بمعنى: الوقت فيلحد في آيات الله وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيبويه.

فإن قُلْتَ: كيف سموها آية ثم قالوا: **﴿لتحسرنا بها﴾**؟ **قُلْتُ:** ما سموها آية لاعتقادهم انها آية، وإنما سموها اعتبارًا لتسمية موسى، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾.

﴿الطوفان﴾ ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل، قيل: طغى الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمسًا ولا قمرًا ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره، وقيل: أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام، وعن أبي قلابة: الطوفان الجدري وهو أوّل عذاب وقع فيهم فبقي في الأرض، وقيل: هو: الموتان، وقيل: الطاعون، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرفع عنهم فما آمنوا، فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله، فأقاموا شهرًا، فبعث الله عليهم الجراد، فأكلت عامّة زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة فكشف عنهم، بعد سبعة أيام، خرج موسى عليه السلام إلى

---

(1) قال أحمد: والذي عدّه أوّلاً من كلام سيبويه، وسنذكره قال سيبويه وسألت الخليل عن مهما، فقال هي ما أدخلت معها ما بغوا بمنزلتها مع متى، إذا قلت متى ما تأتي حدّثتك انتهى كلام سيبويه وكان هذا القائل، والله أعلم اغترّ بتشبيه الخليل لها بمتى ما فظنها في معناها، وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما في لحاقها زائدة، مؤكدة للأولى، بما اللاحقة لمتى عاد كلام سيبويه، قال: ولكنهمن استقبحوا تكرير لفظ واحد، فأبدلوا الهاء من الألف، التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل، قال سيبويه: ويجوز أن تكون كإذ ضمت إليها ما انتهى كلامه. قال أحمد: ومعنى تشبيه سيبويه لها بإذما، أن الجزاء بجملة الكلمة، لا بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل، والذي يحقق ذلك أن سيبويه قال: أوّل هذا الباب، وأما حيث، وإذ فلا يجازي بهما، حتى يضم إليهما ما، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما، وكأنما وليست ما فيهما بلغوا، ولكن كل واحدة منهما مع ما بمنزلة حرف واحد، فانظر قوله وليست ما فيهما بلغو يعني: ليست زائدة مؤكدة، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزاء، حتى لا يفيده إلا اجتماع جزئي الكلمة، ويبقى وراء ذلك نظر في أنّ سيبويه هل أراد أن ما ضمت إلى مه التي هي الصوت، أو إلى ما الجزائية، والظاهر من مراده أنّ انضمامها إلى الصوت؛ لأنها لو كانت منضمة إلى الجزائية، لكانت مستقلة بإفادة الجزاء قبل انضمام ما إليها، ولا تكون مثل إذا وحيث ولا يكون تنظير سيبويه مطابقاً، وهذا الذي فهمه ابن طاهر، وتبعه فيه تلميذه ابن خروف وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه، ورد قول ابن بشاذ، أن هذا المذهب للخليل خاصة، وقد تواطأ ابن = بشاذ والزمخشري على نفي هذا المذهب عن سيبويه، وإعزائه إلى غيره، وأظهر ما قوى به مذهب الخليل، والله أعلم أنّ هذه الكلمة استعملت في الاستفهام، حسب استعمالها في الجزاء وأنشدوا:

مهما لي الليلة مهماليه ... أودى بنعلي وسرباليه

أراد: ما لي الليلة ولا إشكال ههنا، أنها ما الاستفهامية كررت تأكيداً كما يقولون لا لا ونعم نعم ثم استكره تكرار اللفظ بعينه، فقلبت ألف الأولى هاء، وقد جاء قلب الاستفهامية، وإن لم يكن تكرار، فهو معه أجدر، وإذا وضح أنّ مهما الواقعة في الاستفهام أصلها، ما مكررة كان ذلك أوضح دليل على أنّ الواقعة في الجزاء كذلك، والاستشهاد بالنظائر أميز حجج العربية، والله أعلم، وأما ردّ الزمخشري على من زعم أنها بمعنى: متى ما فرد صحيح، والآية أصدق شاهد على ردّه، فإنّ الضمير المجرور فيها عائد إلى مهما حتماً، وقد اتصل به مفسراً له قوله من آية دلّ على أنّ الضمير واقع على الآية، فلزم وقوع مهما عليها ضرورة اتحاد المرجع في المضمر، ومظهره، فذهاب هذا القائل إلى إيقاع مهما على الوقت زاعماً، أنها بمعنى: متى ما ذهاب عن الصواب وعذر الزمخشري واضح في الرد على تسجيله، وإغلاظ النكير عليه، وتفويق سهام التشنيع إليه، فتأمّل هذا الفصل، ففيه إنارة للسبيل، وشفاء للغليل، والله الموفق.

(2) سورة النساء، الآية: 78.

(3) سورة الزخرف، الآية: 41.

obeikandl.com

الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا فأقاموا شهرًا، فسلط الله عليهم القمل وهو: الحمنان، في قول أبي عبيدة: كبار القردان، وقيل: الدبا وهو: أولاد الجراد قيل: نبات أجنحتها، وقيل: البراغيث، وعن سعيد بن جبير: السوس فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه، وكان يأكل أحدهم طعامًا فيمتلئ قملاً، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا يسيرًا، وعن سعيد بن جبير: أنه كان إلى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى بعصاه فصار قملاً، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر وعزة فرعون لا نصدقك أبدًا، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع، فدخلت بيوتهم وامتلأت منها آنيتهم وأطعمتهم، ولا يكشف أحد شيء من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي وفي التنانير وهي تفور، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دمًا، فشكوا إلى فرعون، فقال: إنه سحركم، فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دمًا، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطي الدم وللإسرائيلي الماء، حتى إنّ المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية اجعلي الماء في فيك ثم مجيه في فيّ فيصير الماء في فيها دمًا، وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك، فكان يمص الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحًا أجاجًا، وعن سعيد بن المسيب: سال عليهم النيل دمًا، وقيل: سلط الله عليهم الرعاف، وروي: أنّ موسى عليه السلام مكث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات، روي أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال: يا رب إنّ عبدك هذا قد علا في الأرض فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدي آية، فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم ما بعده من النقم. وقرأ الحسن: والقمل بفتح القاف وسكون الميم يريد القمل المعروف **﴿آيات مفصلات﴾** نصب على الحال، ومعنى مفصلات: مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم أم ينكثون إلزامًا للحجة عليهم.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾.

﴿بما عهد عندك﴾ ما مصدرية والمعنى: بعهده عندك، وهو: النبوّة، والباء إمّا أن تتعلق بقوله **﴿ادع لنا ربك﴾** على وجهين أحدهما: أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوّة، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك. وإمّا أن يكون: قسمًا مجابًا بلنؤمنن أي: أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾.

﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ إلى حدّ من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدّم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله **﴿إذا هم ينكثون﴾** جواب لما يعني **﴿فلما كشفناه عنهم﴾** فاجأوا النكث وبادروا لم يؤخروه، ولكن كما كشف عنهم نكثوا **﴿فانتقمنا منهم﴾** فأردنا الانتقام منهم **﴿فأغرقناهم﴾** واليم: البحر الذي لا يدرك قعره، وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم؛ لأنّ المستنفعين به يقصدونه **﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾** أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾.

﴿القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ هم: بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والأرض: أرض مصر والشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاؤا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية **﴿باركنا فيها﴾** بالخصب وسعة الأرزاق **﴿وكلمت ربك الحسنى﴾** قوله: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾**[1] إلى قوله: **﴿ما كانوا يحذرون﴾**[2] والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة، ومعنى تمت على بني إسرائيل: مضت عليهم واستمرت من قولك: تم على الأمر إذا مضى عليه **﴿بما صبروا﴾** بسبب صبرهم، وحسبك به حاثًا على الصبر ودالاً على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر

(1) سورة القصص، الآية: 5.

(2) سورة القصص، الآية: 6.

وانتظار النصر ضمن الله له الفرج، عن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله: وتلا الآية ومعنى خف: طاش جزعًا وقلة صبر ولم يزن رزانة أولي الصبر. وقرأ عاصم في رواية: وتمت كلمات ربك الحسنى ونظيره ﴿من آيات ربه الكبرى﴾[1] ﴿**ما كان يصنع فرعون وقومه**﴾ ما كانوا يعملون ويسوون من العمارات وبناء القصور ﴿**ما كانوا يعرشون**﴾ من الجنات ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾[2] أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره وقرئ: يعرشون بالكسر والضم، وذكر اليزيدي أنّ الكسر أفصح، وبلغني أنه قرأ بعض الناس: يغرسون من غرس الأشجار، وما أحسبه إلا تصحيفًا منه.

وهذا آخر ما اختصّ الله من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم، ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستبعاده ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه ظلوم كفار جهول كنود إلا من عصمه الله ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[3] وليسلي رسول الله ﷺ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة، وروي أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وقومه، فصاموه شكرًا لله تعالى.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾.

﴿**فأتوا على قوم**﴾ فمرّوا عليهم ﴿**يعكفون على أصنام لهم**﴾ يواظبون على عبادتها ويلازمونها. قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر وذلك أوّل شأن العجل، وقيل: كانوا قومًا من لخم، وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم. وقرئ: وجوّزنا بمعنى: أجزنا يقال: أجاز المكان وجوّزه وجاوزه بمعنى: جازه، كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه، وقرئ: يعكفون بضم الكاف وكسرها ﴿**اجعل لنا إلـٰهًا**﴾ صنمًا نعكف عليه ﴿**كما لهم آلهة**﴾ أصنام يعكفون عليها، وما كافة للكاف ولذلك وقعت الجملة بعدها، وعن علي رضي الله عنه: أن يهوديًا قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه، فقال: قلتم اجعل لنا إلـٰهًا قبل أن تجفّ أقدامكم ﴿**إنكم قوم تجهلون**﴾ تعجّب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع.

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾.

﴿**إنّ هؤلاء**﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿**متبر ما هم فيه**﴾ مدمّر مكسر ما هم فيه من قولهم: إناء متبر إذا كان فضاضًا، ويقال لكسار الذهب: التبر أي: يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي، ويحطم أصنامهم هذه، ويتركها رضاضًا ﴿**وباطل ما كانوا يعملون**﴾ أي: ما عملوا شيئًا من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان في زعمهم تقرّبًا إلى الله كما قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾[4] وفي إيقاع هؤلاء اسمًا لأن وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لها واسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا.

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾.

﴿**أغير الله أبغيكم إلـٰهًا**﴾ أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودًا وهو فعل بكم ما فعل دون غيره من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحدًا غيركم لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره، ومعنى الهمزة: الإنكار والتعجب من طلبتهم مع كونهم مغمورين في نعمة الله عبادة غير الله.

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾.

﴿**يسومونكم سوء العذاب**﴾ يبغونكم شدّة العذاب، من سام السلعة إذا طلبها.

فإن قُلتَ: ما محل يسومونكم؟ **قُلْتُ**: هو استئناف لا محلّ له، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين، أو من آل فرعون و﴿**ذلكم**﴾ إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب. وللبلاء: النعمة أو المحنة. وقرئ: يقتلون بالتخفيف.

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾.

وروي أنّ موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوّهم آتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يومًا وهو: شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوّك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، وقيل: أوحى الله تعالى إليه أما علمت أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك، وقيل: أمره الله أن

---

(1) سورة النجم، الآية: 18.
(2) سورة الأنعام، الآية: 141.
(3) سورة سبأ، الآية: 13.
(4) سورة الفرقان، الآية: 23.

يصوم ثلاثين يومًا وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله، ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها، ولقد أجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة وفصلها هُهنا و ﴿ميقات ربه﴾ ما وقته له من الوقت وضربه له و ﴿أربعين ليلة﴾ نصب على الحال أي: تمّ بالغًا هذا العدد و ﴿هٰرون﴾ عطف بيان لأخيه، وقرئ: بالضم على النداء ﴿اخلفني في قومي﴾ كن خليفتي فيهم ﴿وأصلح﴾ وكن مصلحًا أو وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل. ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه.

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾.

﴿لميقاتنا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له وحدّدنا، ومعنى اللام: الاختصاص، فكأنه قيل: واختصّ مجيئه بميقاتنا، كما تقول: أتيته لعشر خلون من الشهر ﴿وكلمه ربه﴾[1] من غير واسطة كما تكلم الملك، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقًا به في بعض الأجرام، كما خلقه مخطوطًا في اللوح، وروي: أنّ موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كلمه أربعين يومًا وأربعين ليلة وكتب له الألواح، وقيل: إنما كلّمه في أوّل الأربعين ﴿أرني أنظر إليك﴾[2] ثاني مفعول أرني محذوف، أي: أرني نفسك أنظر إليك.

فإن قُلْتَ: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: ﴿أرني انظر إليك﴾؟ **قُلْتُ**: معنى أرني نفسك اجعلني متمكنًا من رؤيتك بأن تتجلي لي فأنظر إليك وأراك.

فإن قُلْتَ: فكيف قال ﴿لن تراني﴾ ولم يقل لن تنظر إليّ لقوله: ﴿انظر إليك﴾؟ **قُلْتُ**: لما قال: أرني بمعنى: اجعلني متمكنًا من الرؤية التي هي الإدراك علم أن الطلبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه فقيل: لن تراني ولم يقل لن تنظر إليّ.

فإن قُلْتَ: كيف طلب موسى عليه السلام ذلك وهو من أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الرؤية التي هي: إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة، ومنع المجبرة إحالته في العقول غير لازم؛ لأنه ليس بأوّل مكابرتهم وارتكابهم، وكيف يكون طالبه؟ وقد قال حين أخذت الرجفة الذين قالوا: ﴿أرنا الله جهرة﴾[3] ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾[4] إلى قوله: ﴿تضل بها من تشاء﴾[5] فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء

---

(1) قال أحمد: وهذا تصريح منه بخلق الكلام، كما هو معتقد المعتزلة، والذي يخص به هذه الآية من وجوه الردّ عليه، أنها سيقت مساق الامتنان على موسى، باصطفاء الله له، وتخصيصه إياه بتكليمه، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف، والأصوات في بعض الأجرام، واستماع موسى لذلك، لكان كل أحد يساوي موسى عليه السلام في ذلك، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أكثر بهذه المزية، وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام؛ لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام، وأزكاها خلقاً في رسول الله ﷺ، وكانت مزيتهم أظهر، وخصوصيتهم أوفر، ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية، فلا يجمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى، بلا واسطة دليل عليه من حروف، ولا غيرها، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات الباري سبحانه وتعالى، وإن لم يكن جسماً، فكذلك نجيز أن يسمع كلامه، وإن لم يكن حرفاً ولا صوتاً، والكلام في هذه العقيدة طويل والشوط بطين، وهذه النكتة هي الخاصة، بهذه الآية، والله الموفق.

(2) قال أحمد: ما أشدّ ما اضطرب كلامه في هذه الآية؛ لأنّ غرضه أن يدحض الحق بالضلالة، ويشين بكفه الغزالة هيهات قد تبين الصبح، لذي عينين، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذي رين أمّا حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى، فوظيفة علم الكلام وأخصر وجه في إجادة ذلك، أنّ الوجود مصحح الرؤية بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً، وقد شمل الجواز الجوهر، والعرض، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود، وإذا كان الوجود هو المصحح، فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده، = وأمّا استبعاد أن يرى ما ليس في جهة، فأمر وهمي مثله عرض للمعطلة، فعميت بصائرهم، حتى أنكروا موجوداً لا في جهة ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال، وهام، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي، لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة، فكذلك يرى لا في جهة، فالحق أنّ موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى، والقدرية يجبرهم الطمع، ويجرؤهم حتى يرووا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم، وما هم حينئذٍ إلا ممن آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً، وأمّا قوله عليه السلام أتهلكنا بما فعل السفهاء منا تبرياً من أفاعيلهم وتسفيهاً لهم وتضليلاً لرأيهم، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية، فإنّ الذي كان الإهلاك بسببه، إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين، ثم وإن كان السبب طلبهم للرؤية، فليس، لأنها غير جائزة على الله ولكن؛ لأنّ الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا، والخبر صدق، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية، فلما سألوا، وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيباً للخبر، فمن ثم سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة، وتوقيفهم الإيمان عليها، حيث قالوا: لن نؤمن لك، حتى نرى الله جهرة، ألا ترى أن قولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، إنما سألوا فيه جائزاً، ومع ذلك قرّعوا به، لاقتراحهم على الله، ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى، وعنايته عن سبيل الهدى، والله الموفق.

(3) سورة النساء، الآية: 158.

(4) سورة الأعراف، الآية: 155.

(5) سورة الأعراف، الآية: 155.

وضلالاً **قُلْتُ**: ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبراً من فعلهم وليلقمهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق، فلجوا وتمادوا في لجاجهم، وقالوا: لا بدّ ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك وهو قوله: ﴿**لن تراني**﴾؛ ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة فلذلك قال: ﴿**رب أرني أنظر إليك**﴾.

فإن قُلْتَ[1]: فهلا قال أرهم ينظروا إليك؟ **قُلْتُ**: لأن الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه كما أسمعه كلامه فسمعوه معه إرادة مبنية على قياس فاسد فلذلك قال موسى: ﴿**أرني أنظر إليك**﴾؛ ولأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه في نبوّته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى، وقيل له: لن يكون ذلك كان غيره أولى بالإنكار ؛ ولأنّ الرسول إمام أمّته فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعًا إليهم، وقوله[2]: ﴿**أنظر إليك**﴾ وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجلّ صاحب الجمل أن يجعل الله منظورًا إليه مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبي الهذيل والشيخين وجميع المتكلمين؟

فإن قُلْتَ[3]: ما معنى ﴿**لن**﴾؟ **قُلْتُ**: تأكيد النفي الذي تعطيه لا، وذلك أن لا تنفي المستقبل تقول: لا أفعل غدًا، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غدًا والمعنى: أن فعله ينافي حالي كقوله: ﴿لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له﴾[4] فقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾[5] نفي للرؤية فيما يستقبل، و ﴿**لن تراني**﴾ تأكيد وبيان؛ لأن المنفي مناف لصفاته.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل الاستدراك في قوله: ﴿**ولكن انظر إلى الجبل**﴾ بما قبله؟ **قُلْتُ**: اتصل به على معنى أنّ النظر إليّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر، وهو: أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أجعله دكًا بسبب طلبك الرؤية لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه[6] عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: ﴿وتخرّ الجبال هدًا * أن دعوا للرحمٰن ولدًا﴾[7] ﴿**فإن استقرّ مكانه**﴾[8] كما كان مستقرًّا ثابتًا ذاهبًا في جهاته ﴿**فسوف تراني**﴾ تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكًا ويسويه بالأرض، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع، ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك، ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب

---

(1) قال أحمد: وهذا الكلام الآخر من الطراز الأوّل، وأقرب شاهد على ردّه أنه لو كان طلب الرؤية لهم، حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد، لهذا الغرض؛ لأنّ هؤلاء لا يخلو أمرهم إمّا أن يكونوا مؤمنين بموسى، أو كفاراً به، فإن كانوا مؤمنين به، فإخباره إياهم بأن الله تعالى لا يرى، ولا يجوز عليه ذلك كاف في حصول المقصود، من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يرد ذاته، على علم بأن ذلك محال، وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام، فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً؛ لأن الله تعالى إذا منعه مسؤوله من الرؤية، فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك، وهم كفار بموسى عليه السلام، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك، فهذا أوضح مصداق؛ لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازها على الله تعالى، فأخبره الله أن ذلك لا يقع في الدنيا، وإن كان جائزاً.

(2) قال أحمد: ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردّها، وأمّا تنزيهه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استحالة الرؤية إليه، فهو غني عنه، وأمّا إقناعه في تفصيله برجحانه عليه السلام في العلم بالله وبصفاته، على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام، وأبي الهذيل، والشيخين، فهو نقص عن منصبه العليّ وأقل العوام المقلدين، لأهل السنة راجح عند الله على أصحاب البدع، والأهواء، وإن ملؤوا الأرض نفاقاً، وشحنوا مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقاً، فكيف بكليم الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

(3) قال أحمد: لن كما قال تشارك لا في النفي وتمتاز تأكيده، وأمّا استنباط الزمخشري من ذلك منافاة الرؤية لحال الباري عز وجل، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما يستحرز عنه واستشهاده على أن لن تشعر باستحالة المنفي عقلاً مردود كثيراً بكثير من الآي،= كقوله تعالى: ﴿قل لن تخرجوا معي أبداً﴾ فذلك لا يحيل خروجهم عقلاً، ولن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ لن تتبعونا، فهذه كلها جائزات عقلاً، لولا أن الخبر منع من وقوعها، فالرؤية كذلك.

(4) سورة الحج، الآية: 73.

(5) سورة الأنعام، الآية: 103.

(6) قال أحمد: نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الزمخشري، كنسبة الولد إليه، وهذا مفرع على المعتقد السالف بطلانه، وليس له في هذا الفصل وظيفة، إلا تتبع الشبه لامتناع تلقفها من كل فجّ، والحق أن دكّ الجبل إنما كان، لأنّ الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء، ولا تستقرّ الدنيا لإظهار شيء من ملكوت السماء، وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية، ومعناه: عند أبي الحسن رحمه الله فعل فعلاً سماه تجلياً، وكان الغضب إمّا؛ لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة، وإمّا؛ لأنهم كتموا الخبر بأنه لا يرى في الدنيا، وإمّا: لأنهم كفروا بالاقتراح، أو بالمجموع.

(7) سورة مريم، الآيتان: 90 و91.

(8) قال أحمد: وهذا من حيل القدرية في إحالة الرؤية يقولون، قد علقها الله على شرط محال، وهو استقرار الجبل حال دكه، والمعلق على المحال محال، وهذه حيلة باطلة، فإنّ المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار، وذلك ممكن جائز، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له لا يرفع إمكان استقراره، وتعلق العلم لا يغير المعلوم، ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع، ولا العكس وحينئذ يتوجه دليلاً، لأهل السنة، فنقول استقرار الجبل ممكن، وقد علق عليه وقوع الرؤية، والمعلق على الممكن ممكن، والمعتزلة يعتقدون أنّ خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدوراً، ونحن نقول مقدور، ولكن ما تعلقت المشيئة بإيجاده وقولنا أقعد بالآداب، وأسعد بالإجلال في الخطاب.

النظر على الشريطة في وجود الرؤية أعني قوله: ﴿فإن استقرّ مكانه فسوف تراني﴾ ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته ﴿جعله دكًا﴾ أي: مدكوكًا مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير، والدك والدقّ أخوان كالشك والشق، وقرئ: دكًا والدكاء اسم للرابية الناشرة من الأرض كالدكة، أو أرضًا دكاء مستوية ومنه قولهم: ناقة دكاء متواضعة السنام، وعن الشعبي: قال لي الربيع بن خثيم: ابسط يدك دكاء أي: مدها مستوية، وقرأ يحيى بن وثاب: دكًا أي: قطعًا دكًا جمع دكاء ﴿وخرّ موسى صعقًا﴾[1] من هول ما رأى، وصعق من باب فعلته ففعل، يقال: صعقته فصعق وأصله من الصاعقة، ويقال لها: الصاقعة من صقعه إذا ضربه على رأسه، ومعناه: خرّ مغشيًا عليه غشية كالموت، وروي: أن الملائكة مرّت عليه وهو مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة ﴿فلما أفاق﴾ من صعقته ﴿قال سبحانك﴾ أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها ﴿تبت إليك﴾ من طلب الرؤية ﴿وأنا أوّل المؤمنين﴾ بأنك لست بمرئي ولا مدرك بشيء من الحواس.

فإن قُلْتَ[2]: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمم تاب؟ **قُلْتُ**: من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله دكًا، وكيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئًا إليه وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال: ﴿أنا أوّل المؤمنين﴾ ثم تعجب من المتسمين بالإسلام[3]، المتسمين بأهل السنة والجماعة، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبًا، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم، والقول ما قال بعض العدلية فيهم:

لجماعة سموا هواهم سنة ... وجماعة حمر لعمري موكفه
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفه

وتفسير آخر وهو: أن يريد بقوله: ﴿أرني أنظر إليك﴾ عرفني نفسك تعريفًا واضحًا جليًا كأنها إراءة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك. ﴿أنظر إليك﴾ أعرفك معرفة اضطرار كأني أنظر إليك كما جاء في الحديث: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[4] بمعنى: ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى. قال: ﴿لن تراني﴾ أي: لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحتمل قوّتك تلك الآية المضطرة، ولكن انظر إلى الجبل فإني أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات فإن ثبت لتجليها واستقرّ مكانه ولم يتضعضع فسوف تثبت لها وتطيقها، ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته ﴿جعله دكًا وخرّ موسى صعقًا﴾ لعظم ما رأى، فلما أفاق قال: ﴿سبحانك تبت إليك﴾ مما اقترحت وتجاسرت ﴿وأنا أوّل المؤمنين﴾ بعظمتك وجلالك، وأن شيئًا لا يقوم لبطشك وبأسك.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾.

﴿اصطفيتك على الناس﴾ اخترتك على أهل زمانك آثرتك عليهم ﴿برسالاتي﴾ وهي أسفار التوراة ﴿وبكلامي﴾ وبتكليمي إياك ﴿فخذ ما آتيتك﴾ ما أعطيتك من شرف النبوّة والحكمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم، وقيل: خرّ موسى صعقًا يوم عرفة، وأعطي التوراة يوم النحر.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿اصطفيتك على الناس﴾ وكان هُرون مصطفى مثله ونبيًا؟ **قُلْتُ**: أجل، لكنه كان تابعًا له وردًا ووزيرًا، والكليم هو: موسى عليه السلام والأصيل في حمل الرسالة.

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾.

---

(1) قال أحمد: وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية، فيتخذها عوناً وظهراً على المعتقد الفاسد، والوجه التورك بالغلط على ناقلها، وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم الله، بالوكز بالرجل، والغمص في الخطاب.

(2) قال أحمد: أمّا دكّ الجبل، فقد سلف الكلام على سره، وأمّا تسبيح موسى عليه السلام، فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، والله تعالى مقدّس عن قوع خلاف معلومه، وعن الحلف في خبره الحق، وقوله الصدق، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله، وقدس علمه وخبره عن الخلف، وأمّا التوبة في حق الأنبياء، فلا تستلزم كونها عن ذنب؛ لأنّ منصبهم الجليل، ينبغي أن يكون منزهاً مبرأ من كل ما ينحط به، ولا شكّ أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن، كان أكمل، وقد ورد سيئات المقرّبين حسنات الأبرار.

(3) قال أحمد رحمه الله: وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة، ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، وشاعره، والمنافح عنه، وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء المنقلبين بالعدلية، وبالناجين سلاماً، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم، فنقول:

وجماعة كفروا برؤية ربهم ... حقاً ووعد الله ما لن يخلفه
وتلقبو عدلية قلنا أجل ... عدلوا بربهم فحسبهو سفه
وتلقبو الناجين كلا إنهم إن ... لم يكونوا في لظى فعلى شفه

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير في سورة ق، باب: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس» (الحديث رقم: 4851)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما» (الحديث رقم: 1432).

ذكروا في عدد الألواح وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح، وقيل: سبعة، وقيل: لوحين، وأنها كانت من زمرّد جاء بها جبريل عليه السلام، وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء، وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينهاله فقطعها بيده وشققها بأصابعه، وعن الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وأن طولها كان عشرة أذرع، وقوله: ﴿من كل شيء﴾ في محل النصب مفعول كتبنا و ﴿موعظة﴾ وتفصيلاً بدل منه، والمعنى: كتبنا له كلّ شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام، وقيل: أنزلت التوراة وهي: سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام، وعن مقاتل: كتب في الألواح إني أنا الله الرحمٰن الرحيم لا تشركوا بي شيئًا، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإنّ من حلف باسمي كاذبًا فلا أزكيه، ولا تقتلوا، ولا تزنوا، ولا تعقوا الوالدين ﴿فخذها﴾ فقلنا له: خذها عطفًا على كتبنا، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فخذ ما آتيتك﴾[1] والضمير في خذها للألواح، أو لكل شيء؛ لأنه في معنى الأشياء أو للرسالات أو للتوراة ومعنى ﴿بقوّة﴾ بجدّ وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل ﴿يأخذوا بأحسنها﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر، فمرهم أن يحملو على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب كقوله تعالى: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾[2] وقيل: يأخذوا بما هو واجب أو ندب؛ لأنه أحسن من المباح ويجوز أن يراد: يأخذوا بما أمروا به دون ما نهوا عنه على قولك: الصيف أحرّ من الشتاء ﴿ساريكم دار الفاسقين﴾ يريد دار فرعون وقومه وهي: مصر كيف أقفرت منهم ودمّروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم، وقيل: منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم في ممرّكم عليها في أسفاركم، وقيل: دار الفاسقين نار جهنم، وقرأ الحسن: سأوريكم وهي: لغة فاشية بالحجاز يقال: أورني كذا، وأوريته، ووجهه أن تكون من أوريت الزند كأن المعنى بينه لي وأنره لاستبينه، وقرئ: سأورثكم وهي قراءة حسنة يصححها قوله: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾[3].

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

﴿ساصرف عن آياتي﴾ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكًا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وعن الفضيل بن عياض: ذكر لنا عن رسول الله ﷺ: «إذا عظمت أمّتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي»[4] وقيل: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى بأن جمع لها السحرة فأبى الله إلا علوّ الحق وانتكاس الباطل، ويجوز سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها وتسميتها سحرًا بإهلاكهم، وفيه إنذارًا للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم ﴿بغير الحق﴾ فيه وجهان: أن يكون حالاً، بمعنى: يتكبرون غير محقين؛ لأنّ التكبر بالحق لله وحده، وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم ﴿وإن يروا كلّ آية﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لا يؤمنوا بها﴾ وقرأ مالك بن دينار: وإن يروا بضم الياء. وقرئ: سبيل الرشد والرشد والرشاد كقولهم السقم والسقم والسقام، وما أسفه من ركب المفازة فإن رأى طريقًا مستقيمًا أعرض عنه وتركه، وإن رأى معتسفًا مرديًا أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه ﴿ذلك﴾ في محل الرفع أو النصب على معنى ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسببه.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

﴿ولقاء الآخرة﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به أي: ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ما وعد الله في الآخرة ﴿من بعده﴾ من بعد فراقه إياهم إلى الطور.

فإن قُلْتَ: لم قيل: واتخذ قوم موسى عجلاً والمتخذ هو السامري؟ قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم؛ لأنّ رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به فكأنهم أجمعوا عليه، والثاني: أن يراد واتخذوه إلٰهًا وعبدوه. وقرئ: من حليهم بضم الحاء والتشديد جمع حلى كثدي، وثدي، ومن حليهم بالكسر للاتباع كدلي، ومن حليهم على التوحيد، والحلي اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 144.
(2) سورة الزمر، الآية: 55.
(3) سورة الأعراف، الآية: 137.
(4) قال الزيلعي: لم أجده، عن الفضيل بن عياض، وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول 1/473.

فإن قُلْتَ: لمَ قال: ﴿**من حليّهم**﴾ ولم يكن الحليّ لهم، وإنما كانت عواري في أيديهم؟ **قُلْتُ:** الإضافة تكون بأدنى ملابسة، وكونها عواري في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم، ألا ترى إلى قوله عزّ وعلا ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم﴾[1] ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾[2] ﴿**جسدًا**﴾ بدنًا ذا لحم ودم كسائر الأجساد. والخوار صوت البقر. قال الحسن: إنّ السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر، فقذفه في العجل، فكان عجلاً له خوار، وقرأ علي رضي الله عنه: جؤار بالجيم والهمزة من جأر إذا صاح، وانتصاب جسدًا على البدل من عجلاً ﴿**ألم يروا**﴾ حين اتخذوه إلٰهًا أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مدادًا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الأدلة وبما أنزل في كتبه، ثم ابتدأ فقال ﴿**اتخذوه**﴾ أي: اقدموا على ما اقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿**وكانوا ظالمين**﴾ واضعين كل شيء في غير موضعه، فلم يكن اتخاذ العجل بدعًا منهم ولا أوّل مناكيرهم.

وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾.

﴿**ولما سقط في أيديهم**﴾ ولما اشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل؛ لأنّ من شأن من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعض يده غمًا، فتصير يده مسقوطًا فيها لأنّ فاه قد وقع فيها، وسقط مسند إلى في أيديهم وهو من باب الكناية، وقرأ أبو السميفع: سقط في أيديهم على تسمية الفاعل أي: وقع العض فيها، وقال الزجاج معناه: سقط الندم في أيديهم أي: في قلوبهم وأنفسهم كما يقال: حصل في يده مكروه وإن كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهًا لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿**ورأوا أنهم قد ضلوا**﴾ وتبينوا ضلالهم تبينًا كأنهم أبصروه بعيونهم. وقرئ: لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا بالتاء وربنا بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين كما قال آدم وحواء عليهما السلام ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا﴾[3] الأسف الشديد الغضب ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾[4] وقيل: هو الحزين.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾.

﴿**خلفتموني**﴾ قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي، وهذا الخطاب إما أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه أو لوجوه بني إسرائيل وهم: هٰرون عليه السلام والمؤمنون معه، ويدل عليه قوله: ﴿اخلفني في قومي﴾[5] والمعنى: بئس ما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله.

فإن قُلْتَ: أين ما تقتضيه بئس من الفاعل والمخصوص بالذم؟ **قُلْتُ:** الفاعل مضمر يفسره ما خلفتموني والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم.

فإن قُلْتَ: أي معنى لقوله: ﴿**من بعدي**﴾ بعد قوله: ﴿**خلفتموني**﴾؟ **قُلْتُ:** معناه من بعد ما رأيتم من توحيد الله ونفي الشركاء عنه وإخلاص العبادة له، أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجعل لنا إلٰهًا كما لهم آلهة﴾[6] ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه ونحوه ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾[7] أي: من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة. يقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ويضمن معنى سبق فيعدى تعديته فيقال: عجلت الأمر والمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم وهو: انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم فحدثتم أنفسكم بموتي فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم، وروي: أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال: ﴿هذا إلٰهكم وإلٰه موسى﴾[8] إنّ موسى لن يرجع وأنه قد مات، وروي أنهم عدوا عشرين يومًا بلياليها فجعلوها أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا ﴿**وألقى الألواح**﴾ وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدّة الضجر عند استماعه حديث العجل غضبًا لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديدًا شديد الغضب، وكان هارون ألين منه جانبًا ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، وروي: أنّ التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة ﴿**وأخذ برأس أخيه**﴾ أي: بشعر رأسه ﴿**يجره إليه**﴾ بذؤابته وذلك لشدّة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته وظنًا بأخيه أنه فرط في الكف ﴿**ابن أم**﴾ قرئ: بالفتح تشبيهًا بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة، وابن أمي بالياء، وابن إم بكسر الهمزة والميم، وقيل: كان أخاه لأبيه

---

(1) سورة الشعراء، الآيتان: 57 و58.
(2) سورة الشعراء، الآية: 59.
(3) سورة الأعراف، الآية: 23.
(4) سورة الزخرف، الآية: 55.
(5) سورة الأعراف، الآية: 142.
(6) سورة الأعراف، الآية: 138.
(7) سورة الأعراف، الآية: 169.
(8) سورة طه، الآية: 88.

وأمّه، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد وذلك أدعى إلى العطف والرقة وأعظم للحق الواجب، و؛ لأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها، و؛ لأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها **﴿إنّ القوم استضعفوني﴾** يعني: أنه لم يأل جهدًا في كفهم بالوعظ والإنذار وبما بلغته طاقته من بذل القوة في مضادّتهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه **﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾** فلا تفعل بي ما هو أمنيتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ، وقرئ: فلا يشمت بي الأعداء على نهي الأعداء عن الشماتة، والمراد: أن لا يحل به ما يشمتون به لأجله **﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾** ولا تجعلني في موجدتك عليّ وعقوبتك لي قرينًا لهم وصاحبًا، أو ولا تعتقد أني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾.

لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء **﴿قال رب اغفر لي ولأخي﴾** ليرضي أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ولأخيه إن عسى فرط في حسن الخلافة، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾.

﴿غضب من ربهم وذلة﴾ الغضب: ما أمروا به من قتل أنفسهم والذلة: خروجهم من ديارهم؛ لأنّ ذل الغربة مثل مضروب، وقيل: وهو: ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية **﴿المفترين﴾** المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري **﴿هذا إلٰهكم وإله موسى﴾**[1] ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها، ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، **﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾**[2].

وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾.

﴿والذين عملوا السيئات﴾ من الكفر والمعاصي كلها **﴿ثم تابوا﴾** ثم رجعوا **﴿من بعدها﴾** إلى الله واعتذروا إليه **﴿وآمنوا﴾** وأخلصوا الإيمان **﴿إنّ ربك من بعدها﴾** من بعد تلك العظائم **﴿لغفور﴾** لستور عليهم محاء لما كان منهم **﴿رحيم﴾** منعم عليهم بالجنة، وهذا حكم[3] عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم عظم جنايتهم أوّلاً، ثم أردفها تعظيم رحمته ليعلم أنّ الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ولكن لا بدّ من حفظ الشريطة وهي: وجوب التوبة والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم.

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾.

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾[4] هذا مثل كان الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك، و؛ لأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: ولما سكن عن موسى الغضب، لا تجد النفس عندها شيئًا من تلك الهزة وطرفًا من تلك الروعة، وقرئ: ولما سكت وأسكت أي: أسكته الله أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله، والمعنى: ولما طفئ غضبه **﴿أخذ الألواح﴾** التي ألقاها **﴿وفي نسختها﴾** وفيما نسخ منها أي كتب والنسخة فعلة بمعنى: مفعول كالخطبة **﴿لربهم يرهبون﴾** دخلت اللام لتقدم المفعول؛ لأنّ تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفًا ونحو **﴿للرؤيا تعبرون﴾**[5] وتقول لك ضربت.

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾.

﴿واختار موسى قومه﴾ أي: من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله:

منا الذي اختير الرجال سماحة

قيل: اختار من اثني عشر سبطًا من كل سبط ستة

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.

(2) سورة البقرة، الآية: 61.

(3) قال أحمد: يعرض بوجوب وعيد الفساق، وإنّ مغفرة الذنب بدون التوبة منه من المحال الممتنع، وقد تقدم عند ذلك من الأهواء، والبدع، بل الحق أنّ المغفرة لما عدا الشرك موكولة إلى المشيئة غير ممتنعة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والله الموفق.

(4) قال أحمد: وهو من النمط الذي قدمته من قلب الحقيقة، إلى المجاز، وكان الأصل، ولما سكت موسى عن الغضب، ولذلك عدّه بعض أهل العربية من المقلوب، وسلكه في نمط خرق الثوب = المسمار، والتحقيق أنه ليس منه، وأنّ هذا القلب أشرف، وأفصح؛ لأنه بما له على معنى بليغ، وهو: أنّ الغضب كان متمكناً من موسى، حتى كان كأنه يصرفه في أوامره، وكل ما وقع منه حينئذ، فعن الغضب صادر، حتى كأنه هو الذي أمره به، ومثل هذه النكتة الحسناء لا تلقى في خرق الثوب المسمار، بل هي موجودة في قوله تعالى حقيق على أن لا أقول على الله، إلا الحق على خلاف قراءة نافع، وقد تقدّم ذلك آنفاً، والله الموفق.

(5) سورة يوسف، الآية: 43.

obeikandl.com

حتى تتاموا اثنين وسبعين فقال: ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع، وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخًا فأوحى الله تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخًا، وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الأربعين قد ذهب عنهم الجهل والصبا، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربه، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم: ادنوا فدنوا حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجدًا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية، فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم فقالوا: ﴿يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾[1] فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾[2] يريد أن يسمعوا الرد والإنكار من جهته، فأجيب بلن تراني ورجف بهم الجبل فصعقوا. ولما كانت الرجفة ﴿قال﴾ موسى ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ وهذا تمنٍّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة لو شاء الله لأهلكني قبل هذا ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ يعني: أتهلكنا جميعًا يعني: نفسه وإياهم؛ لأنه إنما طلب الرؤية زجرًا للسفهاء وهم طلبوها سفهًا وجهلاً ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي: محنتك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعوا كلامك، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسدًا حتى افتتنوا وضلوا ﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ تضلّ بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك، وتهدي العالمين بك الثابتين بالقول الثابت، وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه؛ لأنّ محنته لما كانت سببًا لأن ضلوا واهتدوا، فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام ﴿أنت ولينا﴾ مولانا القائم بأمورنا.

۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿واكتب لنا﴾ وأثبت لنا واقسم ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾ عافية وحياة طيبة وتوفيقًا في الطاعة ﴿وفي الآخرة﴾ الجنة ﴿هدنا إليك﴾ تبنا إليك، وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب، والهود جمع هائد وهو التائب ولبعضهم:

يا راكب الذنب هدهد واسجد كأنك هدهد

وقرأ أبو وجرة السعدي: هدنا إليك بكسر الهاء من هاده يهيده إذا حرّكه وأماله، ويحتمل أمرين: أن يكون مبنيًا للفاعل والمفعول بمعنى: حرّكنا إليك أنفسنا وأملناها، أو حرّكنا إليك وأملنا على تقدير فعلنا كقولك: عدت يا مريض بكسر العين فعلت من العيادة، ويجوز عدت بالإشمام، وعدت بإخلاص الضمة فيمن قال: عود المريض وقول القول، ويجوز على هذه اللغة أن يكون هدنا بالضم فعلنا من هاده يهيده ﴿عذابي﴾ من حاله وصفته إني ﴿أصيب به من أشاء﴾ أي: من وجب عليّ في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العفو عنه مساغ لكونه مفسدة. وأمّا رحمتي فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي. وقرأ الحسن: من أساء من الإساءة. فسأكتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يا بني إسرائيل للذين يكونون في آخر الزمان من أمّة محمد ﷺ الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون لا يكفرون بشيء منها.

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾.

﴿الذين يتبعون الرسول﴾ الذي نوحي إليه كتابًا مختصًا به وهو: القرآن ﴿النبي﴾ صاحب المعجزات ﴿الذي يجدونه﴾ يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل ﴿مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.. ويحل لهم الطيبات﴾ ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة والحكم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلى كسبه من السحت ﴿ويحرّم عليهم الخبائث﴾ ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة. الاصر الثقل الذي ياصر صاحبه أي: يحبسه من الحراك لثقله وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم. وكذلك الأغلال، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمدًا كان أو خطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت، وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة، وقرئ: آصارهم: على الجمع ﴿وعزروه﴾ ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدوّ، وقرئ: بالتخفيف، وأصل العزر: المنع،

(1) سورة الأعراف، الآية: 156.
(2) سورة البقرة، الآية: 55.

ومنه التعزير للضرب دون الحد؛ لأنه منع عن معاودة القبيح، ألا ترى إلى تسمية الحدّ والحدّ هو المنع و﴿النور﴾ القرآن.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿أنزل معه﴾ وإنما أنزل مع جبريل؟ **قُلْتُ:** معناه أنزل مع نبوّته؛ لأنّ استنباءه كان مصحوبًا بالقرآن مشفوعًا به، ويجوز أن يعلق باتبعوا أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه، أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه.

فإن قُلْتَ: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ **قُلْتُ:** لما دعا لنفسه ولبني إسرائيل أجيب بما هو منطو على توبيخ بني إسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله تعالى وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجراها على يد موسى وعرض بذلك في قوله: ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[1] وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ وما جاء به، كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين، لطفًا لهم وترغيبًا في إخلاص الإيمان والعمل الصالح وفي أن يحشروا معهم ولا يفرّق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة الله التي وسعت كل شيء.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾.

﴿إني رسول الله إليكم جميعًا﴾ قيل: بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى كافة الإنس وكافة الجن و ﴿جميعًا﴾ نصب على الحال من إليكم.

فإن قُلْتَ: ﴿الذي له ملك السمٰوات والأرض﴾ ما محله؟ **قُلْتُ:** الأحسن أن يكون منتصبًا بإضمار أعني وهو الذي يسمى النصب على المدح، ويجوز أن يكون جرًا على الوصف وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إليكم جميعًا﴾ وقوله: ﴿لا إله إلاّ هو﴾ بدل من الصلة التي هي له ملك السمٰوات والأرض وكذلك ﴿يحيي ويميت﴾ وفي لا إله إلاّ هو بيان للجملة قبلها؛ لأنّ من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة وفي يحيي ويميت بيان لاختصاصه بالإلهية؛ لأنه لا يقدر على الإحياء والأماتة غيره ﴿وكلماته﴾ وما أنزل عليه وعلى من تقدّمه من الرسل من كتبه ووحيه، وقرئ: وكلمته على الإفراد وهي: القرآن أو أراد جنس ما كلم به، وعن مجاهد: أراد عيسى ابن مريم، وقيل: هي الكلمة التي تكون عنها عيسى وجميع خلقه، وهي قوله: كن، وإنما قيل: إن عيسى كلمه الله فخص بهذا الاسم؛ لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ولم يكن من نطفة تمني ﴿لعلكم تهتدون﴾ إرادة أن تهتدوا.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: فآمنوا بالله وبي بعد قوله: ﴿إني رسول الله إليكم﴾؟ **قُلْتُ:** عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ولما في طريقه الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو: هذا الشخص المستقل بأنه النبيّ الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنًا من كان أنا أو غيري إظهارًا للنصفة وتفاديًا من العصبية لنفسه.

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾.

﴿ومن قوم موسى أمة﴾ هم: المؤمنون التائبون من بني إسرائيل لما نكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين: عبادة العجل واستجازة رؤية الله تعالى، نكرأنّ منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم. وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي ﷺ وآمن به من أعقابهم، وقيل: إنّ بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطًا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ففتح الله لهم نفقًا في الأرض فساروا فيه سنة ونصفًا حتى خرجوا من وراء الصين وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا، وذكر عن النبي ﷺ: «إن جبريل ذهب ليلة الإسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا لا؛ قال: هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به، وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه مني السلام، فرد محمد على موسى عليهما السلام السلام، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت»، وعن مسروق قرئ بين يدي عبد الله فقال رجل: إني منهم، فقال عبد الله ـ يعني لمن كان في مجلسه من المؤمنين ـ وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئًا؟ من يهدي بالحق وبه يعدل، وقيل: لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين وهذا من باب الفرض والتقدير، وإلا فقد طار الخبر بشريعة محمد ﷺ إلى كل أفق وتغلغل في كل نفق ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا برّ ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها إلا وقد ألقاه إليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ

(1) سورة الأعراف، الآية: 156.

الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾.

﴿وقطعناهم﴾ وصيرناهم قطعًا أي: فرقًا وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم، وقرئ: وقطعناهم بالتخفيف **﴿اثنتي عشرة أسباطًا﴾** كقولك: اثنتي عشرة قبيلة؛ والأسباط أولاد الولد جمع سبط وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدًا من ولد يعقوب عليه السلام.

فإن قُلْتَ: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعًا، وهلا قيل اثني عشر سبطًا؟ **قُلْتُ:** لو قيل ذلك لم يكن تحقيقًا؛ لأنّ المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطًا موضع قبيلة ونظيره.

بين رماحي مالك ونهشل

و**﴿أممًا﴾** بدل من اثنتي عشرة بمعنى: وقطعناهم أممًا؛ لأنّ كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى لا تكاد تأتلف. وقرئ اثنتي عشرة بكسر الشين **﴿فانبجست﴾** فانفجرت والمعنى واحد وهو: الانفتاح بسعة وكثرة، قال العجاج:

وكيف غربي دالج تبجسا

فإن قُلْتَ: فهلا قيل: فضرب فانبجست؟ **قُلْتُ:** لعدم الإلباس وليجعل الإنبجاس مسببًا على الإيحاء بضرب الحجر للدلالة على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به، وقوله **﴿كل أناس﴾** نظير قوله: **﴿اثنتي عشرة أسباطًا﴾**(1) يريد كل أمّة من تلك الأمم الثنتي عشرة، والأناس اسم جمع غير تكسير نحو رخال وتناء وتوأم وأخوات لها، ويجوز أن يقال: إنّ الأصل الكسر والتكسير والضمة بدل من الكسرة كما أبدلت في نحو سكارى وغيارى من الفتحة **﴿وظللنا عليهم الغمام﴾** وجعلنا ظليلاً عليهم في التيه و**﴿كلوا﴾** على إرادة القول **﴿وما ظلمونا﴾** وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم. ولكن كانوا يضرون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾.

﴿وإذ قيل لهم﴾ واذكر إذ قيل لهم: والقرية بيت المقدس.

فإن قُلْتَ: كيف اختلفت العبارة هٰهنا وفي سورة البقرة؟ **قُلْتُ:** لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ولا تناقض بين قوله: **﴿اسكنوا هذه القرية وكلوا منها﴾** وبين قوله: **﴿فكلوا﴾**(2) لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها، وسواء قدّموا الحطة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: **﴿نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين﴾** موعد بشيئين بالغفران وبالزيادة وطرح الواو لا يخلّ بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران فقيل له: سنزيد المحسنين. وكذلك زيادة منهم زيادة بيان **﴿فأرسلنا﴾** وأنزلنا و **﴿يظلمون﴾** ويفسقون من واد واحد. وقرئ: يغفر لكم خطيئاتكم ونغفر لكم خطاياكم وخطيئاتكم وخطيئتكم على البناء للمفعول.

وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾.

﴿وسلهم﴾ وسل اليهود، وقرئ: واسألهم، وهذا السؤال معناه: التقرير والتقريع بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحي فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم علم أنه من جهة الوحي، ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك أعدوتم في السبت. والقرية أيلة، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والعرب تسمي المدينة قرية، وعن أبي عمرو بن العلاء: ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج. يعني: رجلين من أهل المدن **﴿حاضرة البحر﴾** قريبة منه راكبة لشاطئه **﴿إذ يعدون في السبت﴾** إذ يتجاوزون حدّ الله فيه وهو: اصطيادهم في يوم السبت وقد نهوا عنه، وقرئ: يعدون بمعنى: يعتدون أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين، ويعدّون من الإعداد وكانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة، والسبت مصدر، سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد، فمعناه: يعدون في تعظيم هذا اليوم، وكذلك قوله: **﴿يوم سبتهم﴾** معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت ويدل عليه قوله **﴿ويوم لا يسبتون﴾** قراءة عمر بن عبد العزيز: يوم أسباتهم، وقرئ: لا يسبتون بضم الباء، وقرأ علي: لا يسبتون بضم الياء من أسبتوا، وعن الحسن: لا يسبتون على البناء للمفعول أي: لا يدار عليهم السبت ولا يؤمرون بأن يسبتوا.

فإن قُلْتَ: **﴿إذ يعدون﴾** و**﴿إذ تأتيهم﴾** ما محلهما من الإعراب؟ **قُلْتُ:** أمّا الأوّل: فمجرور بدل من القرية، والمراد بالقرية أهلها كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال، ويجوز أن يكون منصوبًا بكانت أو بحاضرة، وأمّا الثاني: فمنصوب

---

(1) سورة البقرة، الآية: 58.

(2) سورة الكهف، الآية: 6.

بيعدون، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل. والحيتان السمك وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة ﴿شرعًا﴾ ظاهرة على وجه الماء، وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض يقال: شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا ﴿كذلك نبلوهم﴾ أي: مثل ذا [illegible] الشديد نبلوهم بسبب فسقهم.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾.

﴿وإذ قالت﴾ معطوف على إذ يعدون وحكمه حكمه في الإعراب ﴿أمة منهم﴾ جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم حتى أيسوا من قبولهم لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم ﴿لِمَ تعظون قومًا الله مهلكهم﴾ أي: مخترمهم ومطهر الأرض منهم ﴿أو معذبهم عذابًا شديدًا﴾ لتماديهم في الشر، وإنما قالوا ذلك: لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم ﴿قالوا معذرة إلى ربكم﴾ أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط ﴿ولعلهم يتقون﴾ ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء. وقرئ: معذرة بالنصب أي: وعظناهم معذرة إلى ربكم واعتذرنا معذرة ﴿فلما نسوا﴾ يعني: أهل القرية، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا﴾ الظالمين الراكبين للمنكر.

فإن قُلْتَ: الأمة الذين قالوا: ﴿لِمَ تعظون﴾ من أي الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم المعذبين قُلْتُ: من فريق الناجين؛ لأنهم من فريق الناهين وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه حيث لم يروا فيه غرضًا صحيحًا لعلمهم بحال القوم، وإذا علم الناهي حال المنهي وأنّ النهي لا يؤثر فيه سقط عنه النهي وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه كان ذلك عبثًا منك ولم يكن إلا سببًا للتلهي بك، وأمّا الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم إمّا لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأوّلين ولم يخبروهم كما خبرهم، أو لفرط حرصهم وجدهم في أمرهم كما وصف الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿فلعلك باخع نفسك﴾[1] وقيل: الأمة هم الموعوظون لما وعظوا قالوا للواعظين: لم تعظون منا قومًا تزعمون أنّ الله مهلكهم أو معذبهم، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: يا ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا ﴿لِمَ تعظون قومًا﴾ قال عكرمة فقلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تعظون قومًا الله مهلكهم﴾؟ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، وعن الحسن: نجت فرقتان وهلكت فرقة وهم: الذين أخذوا الحيتان، وروي أنّ اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به وهو: يوم الجمعة فتركوه واختاروا يوم السبت، فابتلوا به وحرم عليهم فيه الصيد وأمروا بتعظيمه، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعًا بيضًا سمانًا كأنها المخاض لا يرى الماء من كثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم جاءهم إبليس فقال لهم: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضًا تسوقون الحيتان إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها وتأخذونها يوم الأحد، وأخذ رجل منهم حوتًا وربط في ذنبه خيطًا إلى خشبة في الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع في تنوره فقال له: إني أرى الله سيعذبك، فلما لم يره عذب أخذ في السبت القابل حوتين، فلما رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا، فصار أهل القرية أثلاثًا ثلث نهوا وكانوا نحو من اثني عشر ألفًا، وثلث قالوا: لم تعظون قومًا، وثلث هم: أصحاب الخطيئة، فلما لم ينتهوا قال المسلمون: إنا لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب، وللمعتدين باب، ولعنهم داود عليه السلام، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا: إن للناس شأنًا، فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسباءها من الإنس، والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود، فجعل القرد يأتي نسيبه فيشم ثيابه ويبكي فيقول: أل[illegible]هك؟ فيقول برأسه: بلى، وقيل: صار الشباب قردة والشيوخ خنازير، وعن الحسن: أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيًا في الدنيا وأطولها عذابًا في الآخرة هاه وايم الله [illegible] أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم [illegible] الله جعل موعدًا والساعة أدهى وأمر ﴿بئيس﴾ شديد [illegible] يقال: بؤس يبؤس بأسًا إذا اشتدّ فهو بئيس، وقرئ: بئس بوزن حذر، وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء كما يقال: كبد في كبد وبيس على قلب الهمزة ياء كذيب في ذئب وبيئس على فيعل بكسر الهمزة وفتحها، وبيس بوزن ريس على قلب همزة بيئس ياء وإدغام اليا[illegible] وبيس على تخفيف بيس كهين في هين، وبائس على [illegible]

فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾.

﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ فلما تكبروا عن ترك ما

(1) سورة الكهف، الآية: 6.

نهوا عنه كقوله: ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾[1] ﴿قلنا لهم كونوا قردة﴾ عبارة عن مسخهم قردة كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾[2] والمعنى: أنّ الله تعالى عذبهم أوّلاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم، وقيل: ﴿فلما عتوا﴾ تكرير لقوله: ﴿فلما نسوا﴾[3] العذاب البئيس هو: المسخ ﴿تأذن ربك﴾ عزم ربك وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام، لأنّ العازم على الأمر يحدث نفسه به ويؤذنها بفعله وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله ﴿ليبعثن﴾ والمعنى: وإذ حتم ربك وكتب على نفسه ليبعثن على اليهود ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ فكانوا يؤدون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث الله محمدًا ﷺ فضربها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر، ومعنى: ليبعثن عليهم ليسلطنّ عليهم كقوله: ﴿بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد﴾[4].

وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾.

﴿وقطعناهم في الأرض أممًا﴾ وفرقناهم فيها فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم ﴿منهم الصالحون﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة أو الذين وراء الصين ﴿ومنهم دون ذلك﴾ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه وهم الكفرة والفسقة.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿دون ذلك﴾؟ **قُلْتُ**: الرفع هو: صفة لموصوف محذوف معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ونحو ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[5] يعني: وما منا أحد إلا له مقام ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ بالنعم والنقم ﴿لعلهم﴾ ينتهون فينيبون.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾.

﴿فخلف﴾ من بعد المذكورين ﴿خلف﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ ﴿ورثوا الكتاب﴾ التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤنها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ولا يعملون بها ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي: حطام هذا الشيء الأدنى يريد الدنيا، وما يتمتع به منها وفي قوله: هذا الأدنى تخسيس وتحقير، والأدنى إما من الدنو بمعنى: القرب لأنه عاجل قريب، وإما من: دنو الحال وسقوطها وقلتها، والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا، وفاعل سيغفر الجار والمجرور وهو: لنا، ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو: مصدر يأخذون ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ الواو للحال أي: يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم غير تائبين، وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة والمصر لا غفران له ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ يعني: قوله في التوراة: من ارتكب ذنبًا عظيمًا فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ﴿ودرسوا ما فيه﴾ في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه المجبرة هو: مذهب اليهود بعينه كما ترى، وعن مالك بن دينار رحمه الله: يأتي على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به قالوا: سيغفر لنا لأنا لم نشرك بالله شيئًا، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداهنة، فهؤلاء من هذه الأمّة أشباه الذين ذكرهم الله وتلا الآية ﴿والدار الآخرة خير﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿للذين يتقون﴾ الرشا ومحارم الله. وقرئ: ورثوا الكتاب وألا تقولوا بالتاء، وادارسوا بمعنى: تدارسوا وأفلا تعقلون بالياء والتاء.

فإن قُلْتَ: ما موقع قوله: ﴿ألا يقولوا على الله إلا الحق﴾ **قُلْتُ**: هو عطف بيان لميثاق الكتاب، ومعنى ميثاق الكتاب: الميثاق المذكور في الكتاب وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب وافتراء على الله وتقول عليه ما ليس بحق، وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان أن لا يقولوا مفعولاً له، ومعناه: لئلا يقولوا، ويجوز أن تكون أن مفسرة ولا تقولوا نهيًا كأنه قيل: ألم يقل لهم لا تقولوا على الله إلا الحق.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾؟ **قُلْتُ**: على ﴿ألم يؤخذ عليهم﴾؛ لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾.

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ فيه وجهان أحدهما: أن يكون مرفوعًا بالابتداء وخبره ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ والمعنى: إنا لا نضيع أجرهم؛ لأنّ المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب كقوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾[6] والثاني: أن يكون مجرورًا عطفًا على الذين يتقون ويكون قوله: ﴿إنا لا نضيع﴾ اعتراضًا. وقرئ: يمسكون بالتشديد وتنصره قراءة أبي: والذين مسكوا بالكتاب.

فإن قُلْتَ: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ومنها

(1) سورة الأعراف، الآية: 77.
(2) سورة يس، الآية: 82.
(3) سورة الأعراف، الآية: 165.
(4) سورة الإسراء، الآية: 5.
(5) سورة الصافات، الآية: 164.
(6) سورة الكهف، الآية: 30.

إقامة الصلاة فكيف أفردت؟ **قُلْتُ:** إظهارًا لمزية الصلاة لكونها عماد الدين، وفارقة بين الكفر والإيمان. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿والذين استمسكوا بالكتاب﴾.

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾.

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ قلعناه ورفعناه كقوله: **﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾**[1] ومنه نتق السقاء إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه. والظلة كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب، وقرئ: بالطاء من أطل عليه إذا أشرف **﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾** وعلموا أنه ساقط عليهم وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخًا في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقًا من سقوطه، فلذلك لا ترى يهوديًا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنابها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فلذلك لا ترى يهوديًا تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وانغض لها رأسه **﴿خذوا ما آتيناكم﴾** على إرادة القول أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم، أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب **﴿بقوة﴾** وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه **﴿واذكروا ما فيه﴾** من الأوامر والنواهي ولا تنسوه أو واذكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه، ويجوز أن يراد خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوّة إن كنتم تطيقونه كقوله: **﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا﴾**[2] **﴿واذكروا ما فيه﴾** من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار **﴿لعلكم تتقون﴾** ما أنتم عليه. وقرأ ابن مسعود: **﴿وتذكروا﴾**، وقرئ: **﴿وانكروا﴾** بمعنى: وتنكروا.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾.

﴿من ظهورهم﴾ بدل من بني آدم بدل البعض من الكل ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلاً وإشهادهم على أنفسهم وقوله: **﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾** من باب التمثيل[3] والتخييل ومعنى ذلك أنه: نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا أقررنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب ونظيره قوله تعالى: **﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾**[4] **﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين﴾**[5] وقوله:

إذ قالت الأنساع للبطن الحق ... قالت له ريح الصبا قرقار

ومعلوم أنه لا قول ثم، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى **﴿أن تقولوا﴾** مفعول له أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة أن تقولوا **﴿يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾** لم ننبه عليه **﴿أو﴾** كراهة أن **﴿تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾** فاقتدينا بهم؛ لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم.

فإن قُلْتَ[6]: بنو آدم وذرياتهم من هم؟ **قُلْتُ:** عنى ببني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله حيث قالوا: عزيرًا ابن الله، وبذرياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من أخلافهم المقتدين بآبائهم والدليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله: **﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل﴾** والدليل على أنها في اليهود الآيات التي عطفت عليها والتي عطفت عليها وهي على نمطها وأسلوبها وذلك قوله: **﴿واسألهم عن القرية﴾**[7] **﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون﴾**[8] **﴿وإذ تأذن ربك﴾**[9] **﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾**[10] **﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾**[11] **﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾** أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتقدمهم فيه وتركه سنة لنا.

---

(1) سورة النساء، الآية: 154.
(2) سورة الرحمٰن، الآية: 33.
(3) قال أحمد: إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به، وأمّا إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى، فمردود ولم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف لمعقول، ويجب إقراره على ما هو عليه، فلذلك أقرّه الأكثرون على ظاهره وحقيقته، ولم يجعلوه مثالاً، وأما كيفية الإخراج والمخاطبة، فالله أعلم بذلك.
(4) سورة النحل، الآية: 40.
(5) سورة فصلت، الآية: 11.
(6) قال أحمد والأظهر أنها شاملة لجملة بني آدم، فتدخل اليهود في عمومها؛ لأنّ كل واحد من بني آدم يصدق عليه الأمران جميعاً، أنه ابن آدم، وأنه ذريته، ولا يخرج من هذا، إلا آدم عليه السلام، وإنما لم يذكر لظهوره، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى في فن البلاغة، باللف اختصاراً، وإيجازاً.
(7) سورة الأعراف، الآية: 163.
(8) سورة الأعراف، الآية: 164.
(9) سورة الأعراف، الآية: 167.
(10) سورة الأعراف، الآية: 171.
(11) سورة الأعراف، الآية: 175.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾.

﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ **﴿نفصل الآيات﴾** لهم **﴿ولعلهم يرجعون﴾** وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفصلها. وقرئ*: ذريتهم على التوحيد وأن يقولوا بالياء.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾.

﴿واتل عليهم﴾ على اليهود **﴿نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾** هو عالم من علماء بني إسرائيل وقيل: من الكنعانيين اسمه بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله **﴿فانسلخ منها﴾** من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره **﴿فأتبعه الشيطان﴾** فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينًا له، أو فأتبعه خطواته وقرئ*: فاتبعه بمعنى: فتبعه **﴿فكان من الغاوين﴾** فصار من الضالين الكافرين. روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة؟ فألحوا عليه ولم يزالوا به حتى فعل.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾.

﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات **﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾** مال إلى الدنيا ورغب فيها، وقيل: مال إلى السفالة.

فإن قُلْتَ: كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ **قُلْتُ:** المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات، فذكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها ألا ترى إلى قوله: **﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾** فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو: فعله فوجب أن يكون ولو شئنا في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكنا لم نشأ **﴿فمثله كمثل الكلب﴾** فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها. وهي حال دوام اللهث به واتصاله سواء حمل عليه أي: شدّ عليه وهيج فطرد، أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه، وذلك أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرّك وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعًا، وكان حق الكلام أن يقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع قوله **﴿فمثله كمثل الكلب﴾** موضع حططناه أبلغ حط؛ لأنّ تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأذلها في معنى ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الكلب منقطع الفؤاد يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه[1]، وقيل معناه: إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته فسعى لهث وإن تركته على حاله لهث.

فإن قُلْتَ: ما محل الجملة الشرطية؟ **قُلْتُ:** النصب على الحال كأنه قيل: كمثل الكلب نليلاً دائم الذلة لاهثًا في الحالتين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب **﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾** من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، ونكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به، **﴿فاقصص﴾** قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم **﴿لعلهم يتفكرون﴾** فيحذرون مثل عاقبته إذ ساروا نحو سيرته وزاغوا شبه زيغه، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي فيزدادوا إيقانًا بك وتزداد الحجة لزومًا لهم **﴿ساء مثلاً القوم﴾** أي: مثل القوم، أو ساء أصحاب مثل القوم، وقرأ الجحدري ساء مثل القوم **﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾** إما أن يكون معطوفًا على كذّبوا فيدخل في حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم، وإما أن يكون كلامًا منقطعًا عن الصلة بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب وتقديم المفعول به للاختصاص كأنه قيل: وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدها إلى غيرها **﴿فهو المهتدي﴾** حمل على اللفظ و **﴿فأولئك هم الخاسرون﴾** حمل على المعنى.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾.

﴿كثيرًا من الجن والإنس﴾ هم: المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان، وجعلهم لإعراقهم في الكفر وشدّة شكائمهم فيه وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار، ومنه كتاب عمر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دلوكًا عجن بخمر وإني لأظنكم آل المغيرة ذرء النار[2]، ويقال لمن كان عريقًا في بعض الأمور: ما خلق فلان إلا لكذا، والمراد وصف حال اليهود في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله ﷺ مع علمهم أنه النبي الموعود وأنهم

(1) لم يخرجه الزيلعي 1/473

(2) أبو عبيدة في كتاب: غريب الحديث، الزيلعي 1/473.

من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم كأنهم خلقوا للنار ﴿أولئك كالأنعام﴾ في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبر ﴿بل هم أضل﴾ من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبر ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الكاملون في الغفلة، وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار.

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾.

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾[1] التي هي أحسن الأسماء؛ لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك ﴿فادعوه بها﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم[2]: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا نخي، أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى نحو أن يقولوا: يا الله، ولا يقولوا: يا رحمٰن وقد قال الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾[3] ويجوز أن يراد[4]: ولله الأوصاف الحسنى وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصفوه بها، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيصفونه بمشيئة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها، وقيل[5]: الحادهم في أسمائه تسميتهم الأصنام آلهة، واشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾.

لما قال ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا﴾[6] فأخبر أنّ كثيرًا من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار أتبعه قوله ﴿وممن خلقنا أمّة يهدون بالحق﴾ وعن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق»[7] وعنه ﷺ: «إنّ من أمّتي قومًا على الحق حتى ينزل عيسى عليه السلام»[8] وعن الكلبي: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، وقيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾.

الاستدراج استفعال من الدرجة بمعنى: الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة قال الأعشى:

فلو كنت في جبّ ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم
ليستدرجنك القول حتى تهره وتعلم أني عنكم غير مفحم

ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب طواه شيئًا بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في أثر بعض، ومعنى ﴿سنستدرجهم﴾ سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم ﴿من حيث لا يعلمون﴾ ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي، فكلما جدّد عليهم نعمة ازدادوا بطرًا وجدّدوا معصية فيتدرّجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين أنّ مواترة النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه.

وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾.

﴿وأملي لهم﴾ عطف على سنستدرجهم وهو داخل في حكم السين ﴿إنّ كيدي متين﴾ سماه كيدًا لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان ﴿ما بصاحبهم﴾ بمحمد ﷺ ﴿من جنة﴾ من جنون، وكانوا يقولون شاعر مجنون، وعن قتادة: أنّ النبي ﷺ: «علا الصفا فدعاهم فخذًا فخذًا يحذرهم بأس الله». فقال قائلهم: إنّ صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت إلى الصباح.

أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾.

﴿أولم ينظروا﴾ نظر استدلال ﴿في ملكوت السموات والأرض﴾ فيما تدلان عليه من عظم الملك، والملكوت الملك العظيم[9] ﴿وما خلق الله من شيء﴾ وفيما خلق الله مما

---

(1) قال أحمد: أي، مما يجوز عليه، وإن لم يرد إطلاقه شرعاً، كالسيف والعارف، ونحو ذلك.

(2) قال أحمد: وفي هذا التأويل بعد؛ لأنّ ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه إلحاد في العرف، وإنما يطلق على فعل لا على ترك، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها إلى ذاته، وهذا أدل على الحرمن منه على مثل أبيض الوجه، ونحوه، فإن هذا ليس من أسمائه، إلا أن يقال أضافه إليه تنزيلاً على زعمهم.

(3) سورة الإسراء، الآية: 110.

(4) قال أحمد: لا يدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع يسعها، فإن يكن المراد الأوصاف، فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة، والانفراد بالمخلوقات، حتى لا يشرك معه عباده في خلق أفعالهم، ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل، وأن كل قضائه = عدل، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم، وإن وعده الصدق، وقوله الحق، وقد وعد رؤيته، فوجب وقوعها إلى غير ذلك من أوصافه الجليلة، وذرو الذين يلحدون في أوصافه، فيجحدونها، ثم يزعمون أنه لا يشمل قدرته المخلوقات، بل هي مقوسمة بينه وبين عباده، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه مصلحة، ويحجرون واسعاً من مغفرته، وعفوه، وكرمه على الخطائين، من موحديه إلى غير ذلك من الإلحاد، المعروف بالطائفة المتلقبين عدلية المزكين، لأنفسهم، وهو أعلم بمن اتقى.

(5) قال أحمد: وهذا تفسير حسن ملائم، والله أعلم.

(6) سورة الأعراف، الآية: 179.

(7) الثعلبي في تفسيره.

(8) رواه أحمد في مسنده 4/429.

(9) رواه الطبراني في تفسيره.

يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف ﴿وأن عسى﴾ أن مخففة من الثقيلة والأصل وأنه عسى على أن الضمير ضمير الشأن، والمعنى: أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى ﴿أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مغافصة الأجل وحلول العقاب؛ ويجوز أن يراد باقتراب الأجل اقتراب الساعة، ويكون من كان التي فيها ضمير الشأن.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق؟ قوله: ﴿فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾ قُلْتُ: بقوله: ﴿عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ كأنه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحقّ، وبأيّ حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا. قرئ: ويذرهم بالياء والنون والرفع على الاستئناف، ويذرهم بالياء والجزم عطفًا على محل فلا هادي له كأنه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿يسئلونك﴾ قيل: إنّ قومًا من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا فإنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحانًا منهم مع علمهم أنّ الله تعالى قد استأثر بعلمها، وقيل: السائلون قريش. والساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو على العكس لطولها أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق ﴿أيان﴾ بمعنى: متى، وقيل: اشتقاقه من أيّ فعلان منه؛ لأن معناه: أيّ وقت وأيّ فعل من أويت إليه؛ لأنّ البعض آو إلى الكل متساند إليه قاله ابن جني وأبى أن يكون من أين لأنه زمان وأين مكان، وقرأ: السلمي إيان بكسر الهمزة ﴿مرساها﴾ إرساؤها أو وقت إرسائها أي: إثباتها وإقرارها، وكل شيء ثقيل رسوه ثباته واستقراره، ومنه رسى الجبل وأرسى السفينة والمرسي الانجر الذي ترسي به، ولا أثقل من الساعة بدليل قوله: ﴿ثقلت في السمٰوات والأرض﴾ والمعنى: متى يرسيها الله؟ ﴿إنما علمهما﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحدًا من ملك مقرّب ولا نبي مرسل، يكاد يخفيها من نفسه ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وازجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو: وقت الموت لذلك ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا تزال خفية لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها ﴿ثقلت في السمٰوات والأرض﴾ أي: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة ويوده أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه أو ثقلت فيها؛ لأنّ أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدها وأهوالها أو؛ لأنّ كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها ﴿إلا بغتة﴾ إلا فجاة على غفلة منكم، وعن النبي ﷺ: إنّ الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه[1] ﴿كأنك حفي عنها﴾ كأنك عالم بها، وحقيقته كأنك بليغ[2] في السؤال عنها؛ لأنّ من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه استحكم علمه فيه ورصن، وهذا التركيب معناه: المبالغة، ومنه إحفاء الشارب، واحتفاء البقل استئصاله، وأحفى في

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: الرقاق، باب: (40) (الحديث رقم: 6506) ومسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (الحديث رقم: 7339).

(2) قال أحمد: وفي هذا النوع من التنكرير نكتة لا تلفى، إلا في هذا الكتاب العزيز، وهو أجل من أن يشارك فيها، وذاك أنّ المعهود في أمثال هذا التكرير، أنّ الكلام إذا بنى على مقصد، واعترض في أثنائه عارض، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأوّل، وقد بعد عهده طرى بذكر المقصد الأوّل لتتصل نهايته ببدايته، وقد تقدّم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وسيأتي وهذا منها فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله: ﴿يسئلونك عن الساعة أيان مرساها﴾ ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله: ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾، إلى قوله ﴿بغتة﴾ أريد تتميم سؤالها عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن في قوله كأنك حفى عنها، وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده فطرى ذكره تطرية عامة، ولا نراه أبداً يطرى، إلا بنوع من الإجمال، كالتذكرة للأوّل مستغنى عن تفصيله بما تقدّم، فمن ثمّ قيل يسألونك، ولم يذكر المسؤل عنه، وهو الساعة اكتفاء بما تقدّم، فلما كرّر السؤال لهذه الفائد كرّر الجواب أيضاً مجملاً، فقال قل إنما علمها عند الله، ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد=

= بسطه، ومن أنق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير، لأجل بعد العهد تطرية للذكر قوله: ﴿عجل﴾ لنا هذا، وألحقنا بذا آل الشحم إنا قد مللناه بحل، أي: فقط، فذكر الألف واللام خاتمة للأوّل من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى، فطرى ذكرها، وأبقى الأولى في مكانها، ومن ثم استدل ابن جنى على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء، فهو بيت كامل وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن قال: ولو كان بيتاً واحداً لم يكن عهد الأولى متباعداً، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها، ألا ترى أن عبيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات، وجعل آخر المصراع الأوّل أل لم يعدها أوّل المصراع الثاني؛ لأنه بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً، وذلك قوله:

يا خليلي اربعاً واستنجرا أل ... منزل الدراس من أهل الحلال

مثل سحق البرد عفى بعدك ال ... قطر مغناء وتأويب الشمال

ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً، فانظر هذه النكتة كيف بالغت العرب في رعايتها، حتى عدت القريب بعيداً، والمتقاصر مديداً، فتأملها، فإنها تحفة إنما عند الحذاق الأعيان في صناعتي العربية، والبيان، والله المستعان.

المسألة إذا ألحف، وحفي بفلان وتحفى به بالغ في البرّ به، وعن مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمت، وقرأ ابن مسعود: كأنك حفي بها أي: عالم بها بليغ في العلم بها، وقيل: عنها متعلق بيسئلونك أي: يسئلونك عنها كأنك حفي أي: عالم بها، وقيل: إنّ قريشًا قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسئلونك عنها كأنك حفي تنحفي بهم فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوي علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص كسائر ما أوحي إليك، وقيل: كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه وتؤثره، يعني أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحد من خلقه.

فإن قُلْتَ: لم كرر ﴿يسئلونك﴾ وإنما علمها عند الله؟ **قُلْتُ:** للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله: ﴿كأنك حفي عنها﴾، وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة منهم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمهما الله ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنه العالم بها وأنه المختص بالعلم بها.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾.

﴿قل لا أملك لنفسي﴾ هو: إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كما المماليك والعبيد ﴿إلا ما شاء﴾ ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستغزار المنافع واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسني شيء منها، ولم أكن غالبًا مرة ومغلوبًا أخرى في الحروب ورابحًا وخاسرًا في التجارات، ومصيبًا ومخطئًا في التدابير ﴿إن أنا إلا﴾ عبد أرسلت نذيرًا وبشيرًا وما من شأني أني أعلم الغيب ﴿لقوم يؤمنون﴾ يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعًا؛ لأنّ النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم، أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفًا أي: إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾.

﴿من نفس واحدة﴾ وهي نفس آدم عليه السلام ﴿وجعل منها زوجها﴾ وهي حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه أو من جنسها كقوله: ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجًا﴾[1] ﴿ليسكن إليها﴾ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر؛ لأنّ الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضًا منه كان السكون والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه، وقال: ﴿ليسكن﴾ فذكر بعد ما أنث في قوله واحدة منها زوجها ذاهبًا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم، و؛ لأنّ الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التذكير أحسن طباقًا للمعنى. والتغشي كناية عن الجماع وكذلك الغشيان والإتيان ﴿حملت حملاً خفيفًا﴾ خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه، وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته ﴿فمرت به﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق، وقيل: ﴿حملت حملاً خفيفًا﴾ يعني: النطفة فمرت به فقامت به وقعدت، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فاستمرت به، وقرأ يحيى بن يعمر: فمرت به بالتخفيف، وقرأ غيره: فمارت به من المرية كقوله: ﴿أفتمارونه﴾[2] وأقتمرونه، ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل فارتابت به ﴿فلما أثقلت﴾ حان وقت ثقل حملها كقولك: أقربت، وقرئ: أثقلت على البناء للمفعول أي: أثقلها الحمل دعوا الله ربهما دعا آدم وحواء ربّهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا ﴿لئن آتيتنا﴾ لئن وهبت لنا ﴿صالحًا﴾ ولدًا سويًا قد صلح بدنه وبرئ، وقيل: ولدًا ذكرًا؛ لأنّ الذكورة من الصلاح والجودة والضمير[3] في آتيتنا و ﴿لنكونن﴾ لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما ﴿فلما آتاهما﴾ ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿جعلا له شركاء﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فيما آتاهما﴾ أي: آتى أولادهما، وقد دلّ على ذلك بقوله:

(1) سورة الشورى، الآية: 11.

(2) سورة النجم، الآية: 12.

(3) قال أحمد: وأسلم من هذين التفسرين، وأقرب، والله أعلم أن يكون المراد: جنسي الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكان المغنى، والله أعلم: خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً، لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس، الذي هو الذكر الجنس الآخر، الذي هو الأنثى، جرى من هذين الجنسين كيت، وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس، وإن كان فيهم الموحدون؛ لأنّ المشركين منهم إذا ما مت لسوف أخرج حياً، ﴿وقتل الإنسان ما = أكفره إن الإنسان لفي خسر﴾ كما أنه كذلك على التفسير الأوّل أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء، وهو واقع من بعضهم، وعلى التفسير الثاني أضافه إلى قصى وعقبه، والمراد البعض، فهذا السؤال، وارد على التأويلات الثلاثة، وجوابه واحد، ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التأويل الأوّل، ومما ينصرف إلى التأويل الثاني من استبعاد تخصيص قصى بهذا الأمر المشترك في الجنس، وهو جعل زوجته منه، وكون المراد بذلك أن يسكن إليها، لأنّ ذلك عام في الجنس، والله أعلم.

﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريئان من الشرك ومعنى: إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمٰن وعبد الرحيم، ووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ وهم: آل قصي، ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد[1].

فيا لقصي ما زوى الله عنكم ... به من فخار لا يبارى وسودد

ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصي وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار، وجعل الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه. وقرئ: شركًا أي: ذوي شرك وهم: الشركاء، أو أحدثا لله شركًا في الولد.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾.

أجريت الأصنام مجرى أولي العلم في قوله ﴿وهم يخلقون﴾ بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة، والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله وهم يخلقون؛ لأنّ الله عز وجل خالقهم أو لا يقدر على اختلاق شيء لأنه جماد وهم يخلقون لأنّ عبدتهم يختلقونهم فهم أعجز من عبدتهم ﴿ولا يستطيعون لهم﴾ لعبدتهم ﴿نصرًا ولا انفسهم ينصرون﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم.

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾.

﴿وإن تدعوهم﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إلى الهدى﴾ أي: إلى ما هو هدى ورشادًا وإلى أن يهدوكم، والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبتكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله ويدل عليه قوله: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾[2] ﴿سواء عليكم ادعوتموهم﴾ أم صمتم عن دعائهم في أنه لا فلاح معهم.

فإن قُلْتَ: هلا قيل أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية؟ **قُلْتُ:** لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم كقوله: ﴿وإذا مس الناس ضر﴾[3] فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾.

﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله ﴿عباد أمثالكم﴾ وقوله: عباد أمثالكم استهزاء بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عبادًا أمثالهم فقال: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾ وقيل: عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم، وقرأ سعيد بن جبير: «إنّ الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالكم» بتخفيف إنّ ونصب عبادًا أمثالكم والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالكم على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثم كيدون﴾ جميعًا أنتم وشركاؤكم ﴿فلا تنظرون﴾ فإني لا أبالي بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خوّفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم هود له: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾[4] قال لهم: ﴿إني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون﴾[5].

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾.

﴿إن وليّ الله﴾ أي: ناصري عليكم الله ﴿الذي نزل الكتاب﴾ الذي أوحي إليّ كتابه وأعزني برسالته ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخذلهم ﴿ينظرون إليك﴾ يشبهون الناظرين إليك؛ لأنهم صوّروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه ﴿وهم لا يبصرون﴾ وهم لا يدركون المرئيّ.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾.

﴿العفو﴾ ضد الجهد أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ولا تداقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا» وقال:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 3/9.

(2) سورة الأعراف، الآية: 194.

(3) سورة الروم، الآية: 33.

(4) سورة هود، الآية: 54.

(5) سورة هود، الآيتان: 54 و55.

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم وذلك قبل نزول آية الزكاة فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعًا أو كرهًا. والعرف: المعروف والجميل من الأفعال **﴿وأعرض عن الجاهلين﴾** ولا تكافيء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم، واحلم عنهم وأغض على ما يسوءك منهم، وقيل: لما نزلت الآية سأل جبريل فقال: لا أدري حتى أسأل، ثم رجع فقال: يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك[1]، وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾.

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ وإما ينخسنك منه نخس بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به **﴿فاستعذ بالله﴾** ولا تطعه النزغ والنسغ الغرز والنخس كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي وجعل النزغ نازغًا كما قيل: جدّ جدّه، وروي أنها لم نزلت قال رسول الله ﷺ: «كيف يا رب والغضب»[2] فنزل و **﴿إما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾** ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان: اعتراء الغضب كقول أبي بكر رضي الله عنه: إنّ لي شيطانًا يعتريني[3] **﴿طيف من الشيطان﴾** لمة منه مصدر من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفًا قال:

أني لم أبك الخيال بطيف

أو هو تخفيف طيف فيعل من طاف يطيف كلين، أو من طاف يطوف كهين، وقرئ: طائف وهو يحتمل الأمرين أيضًا، وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأنّ المتقين هذه عادتهم إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته **﴿تذكروا﴾** ما أمر الله به ونهى عنه، فأبصروا السداد، ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم. وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين فإنّ الشياطين يمدونهم في الغي أي: يكونون مددًا لهم فيه ويعضدونهم. وقرئ: يمدونهم من الإمداد ويمادّونهم بمعنى: يعاونونهم **﴿ثم لا يقصرون﴾** ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا، وقوله: **﴿وإخوانهم يمدونهم﴾** كقوله:

قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها

في أنّ الخبر جار على غير ما هو له، ويجوز أن يراد بالإخوان: الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين فيكون الخبر جاريًا على ما هو له، والأوّل أوجه؛ لأنّ إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾.

اجتبى الشيء بمعنى: جباه لنفسه أي: جمعه، كقولك: اجتمعه، أو جبى إليه فاجتباه أي: أخذه، كقولك: جليت إليه العروس فاجتلاها، ومعنى **﴿لولا اجتبيتها﴾** هلا اجتمعتها افتعالاً من عند نفسك؛ لأنهم كانوا يقولون إن هذا إلا إفك مفترى أو هلا أخذتها منزّلة عليك مقترحة **﴿قل إنما أتبع ما يوحي إليّ من ربي﴾** ولست بمفتعل للآيات أو لست بمقترح لها **﴿هذا بصائر﴾** هذا القرآن بصائر **﴿من ربكم﴾** أي: حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾.

﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة، وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن، وقيل معناه: وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له، وقيل معنى فاستمعوا له: فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾.

﴿واذكر ربك في نفسك﴾ هو: عامّ في الأذكار من قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل وغير ذلك **﴿تضرّعًا وخيفة﴾** متضرعًا وخائفًا **﴿ودون الجهر﴾** ومتكلمًا كلامًا دون الجهر؛ لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر **﴿بالغدوّ والآصال﴾** لفضل هذين الوقتين، أو أراد الدوام ومعنى بالغدوّ: بأوقات الغدوّ وهي الغدوات، وقرئ: والإيصال من آصل إذا دخل في الأصيل كأقصر وأعتم وهو مطابق للغدوّ **﴿ولا تكن من الغافلين﴾** من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾.

﴿إنّ الذين عند ربك﴾ هم: الملائكة صلوات الله عليهم، ومعنى: عند دنو الزلفة والقرب من رحمة الله تعالى وفضله لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته **﴿وله يسجدون﴾** ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين.

فإن قُلْتَ: لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟ **قُلْتُ:** المراد به الجنس كقوله: **﴿أولياؤهم الطاغوت﴾**[4].

---

(1) رواه الطبراني في تفسيره.

(2) رواه الطبراني في تفسيره.

(3) أخرجه الزيلعي في مسنده 1/481.

(4) سورة البقرة، الآية: 257.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس سترًا، وكان آدم شفيعًا له يوم القيامة»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال مدنية

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾.

النفل الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى وعطائه. قال لبيد:

إنّ تقوى ربنا خير نفل

والنفل ما ينفله الغازي أي: يعطاه زائدًا على سهمه من المغنم، وهو: أن يقول الإمام تحريضًا على البلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله سلبه، أو قال لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلكم نصفه، أو ربعه، ولا يخمس النفل، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه، وعند الشافعي رحمه الله في أحد قوليه: لا يلزم، ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله ﷺ كيف تقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها؟ أللمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعًا؟ فقيل له: قل لهم: هي لرسول الله ﷺ، وهو الحاكم فيها خاصة، يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم، وقيل: شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينفله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فلما يسر الله الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، فقال الشبان: نحن المقاتلون، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا ردأ لكم وفئة تنحازون إليها إن انهزمتم[2]، وقالوا لرسول الله ﷺ: المغنم قليل والناس كثير، وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك، فنزلت، وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنّ الله قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف، فقال: «ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض» فطرحته وبي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزلت سورة الأنفال: «فقال: يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذه»[3]، وعن عبادة بن الصامت: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ فقسمه بين المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البين[4]، وقرأ ابن محيصن: يسألونك علنفال بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون عن في اللام، وقرأ ابن مسعود: يسألونك الأنفال، أي: يسألك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال.

فإن قُلْتَ: ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول في قوله **﴿قل الأنفال لله والرسول﴾**؟ **قُلْتُ:** معناه أنّ حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوّضًا إلى رأي أحد، والمراد أنّ الذي اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواسي المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافي **﴿فاتقوا الله﴾** في الاختلاف والتخاصم وكونوا متحدين متآخين في الله **﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾** وتآسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم، وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال: اقسموا غنائمكم بالعدل فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليرد بعضكم على بعض.

فإن قُلْتَ: ما حقيقة قوله ذات بينكم؟ **قُلْتُ:** أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق كقوله: **﴿بذات الصدور﴾**[5] وهي مضمراتها لما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها: ذات البين كقولهم: أسقني ذا إنائك، يريدون ما في الإناء من الشراب، وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ليعلمهم أنّ كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها، ومعنى قوله **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** إن كنتم كاملي الإيمان، واللام في قوله **﴿إنما المؤمنون﴾** إشارة إليهم أي: إنما الكاملون الإيمان من صفتهم كيت وكيت والدليل عليه قوله: **﴿أولئك هم المؤمنون حقًا﴾ ﴿وجلت قلوبهم﴾**

---

(1) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات والثعلبي والديلمي، الزيلعي 1/ 483.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النفل، (الحديث رقم: 2737)، والحاكم في المستدرك 2/326.

(3) رواه أحمد في مسنده (1/181) وأبو عبيدة في الأموال (الحديث رقم 756).

(4) رواه أحمد في مسنده (5/322).

(5) شطر آية ورد في اثني عشر موضعاً منها: سورة آل عمران، الآية: 119.